

دستور پشکوی

ترجمہ صوفی عبداللہ



الاسکائین



نمونہ ۱۰ فروش

Dostoyevsky

دستوفسکی

المسکین

ترجمة صوفي عبد الله

Ex Libris

J. Heyworth-Dunne

D. Lit. (London)

Nº 9943



مقدمة المعربة

قارئاً ما قرأ الانسان فى قصص المشرق والمغرب ، فى القديم والحديث . وأيا ما كان رأيه فى مراتب الفنون وفى مكان القصة من دولة الأدب الرفيع ، فان نتاج عبقرية « فدور دستويشسكى » من القصص ، ومن القصص الطويل على وجه الخصوص ، سيبقى الى آخر الزمان ذخراً من أثمن ما تعتد به الآداب العالمية على اطلاقها

بيت الموتى ..

الجريمة والعقاب

الاخوة كرامازوف

قليل من كثير عرفه العالم لقلم ذلك الكاتب الروسى النابغة ، الذى سما بأدب القصة الى أفق يساوى عظمة شكسبير الخالقة فى دنيا الشعر .

فاذا قيل دستويشسكى ، قيل فخر الانسانية وذخرها جمعاء ، ولا يأتى ذكر وطنه روسيا الا بعد ذلك النسب الحام . ولكن الرجل عبقرية روسية بقدر ما فيه من عبقرية انسانية شاملة ، لأن عناصر تكوين أمتة مكتملة فيه كل الاكتمال ، وفى شخوص رواياته صورة صادقة لذلك الشعب بتوفزه العصبى وتحفزه وعمق انفعالاته واجتماع النقائص فى طبيعته الحية .

فيصدق فى وصف كاتبنا أنه أعظم كتاب القصة الطويلة فى آداب العالم المعروفة غير منازع . . كما يصدق فى وصفه أنه قمة شامخة بين أسمى القمم الشوامخ التى تنازعت التبريز والتفوق فى وطنه وفى زمنه .

وناهيك ببلد اجتمع له من اينائه فى جيل واحد أمثال دستويشسكى وتولستوى وتورجنيف وتشيكوف وجوجول

وجوركي واوبلوموف ... وهى نخبة كريمة ، يكفى واحد منها
 لاعتزاز أمة بأسرها فى أمد طويل ، فكيف وقد اجتمعت لامة واحدة ،
 وفى جيل واحد ؟ ..
 انه اذن ثوران البركان ، أو تحول محور الارض عن مكانه
 المكين فى آفاق الفضاء ، أو ما هو لاحق بذلك من ظواهر الطبيعة
 التى ترجع أسبابها الى مجهولات عميقة محجبة بالغوامض
 والاسرار ، وتؤذن عواقبها بتغير حاسم فى معالم الحياة ...
 فظهور هذه الشموس فى سماء روسيا كان خارقة من تلك
 الخوارق ، ولا مرأى ، فكأنهم جنى الخرافة الذى أطلقه الصياد من
 القمقم ، فلم تفلح فى رده اليه الرقى والتعاويد .
 أما القمقم فكان « الجهل » وأما القفل الذى كان يختم عليه
 أجيالا بعد أجيال فهو « الرجعية » . وأما الجنى فهو « حرية
 الفكر والضمير » . وأما الصياد الذى فتح القمقم فى غير تدبر لما
 فى داخله ، فهو مؤسس روسيا الحديثة ، « القيصر بطرس الاكبر »
 فقد أفتتن هذا القيصر بحضارة الغرب ، فذهب يدفع بلاده
 الى تقليده دفعا عنيفا . وكانت روسيا الى عهده أمة مستعصمة
 ببدائيتها . فبعث « بطرس » البعث الى المانيا وفرنسا
 وانجلترا ، وحث الناس على اتخاذ السمات الاوروبى فى المآكل
 والملبس وآداب الاجتماع .. وأخذ الناس بالرطانة الفرنسية
 والاطلاع على آدابها الحسان . فكأن ذلك القيصر القديم هو
 الاصل الذى أخذ عنه « مصطفى كمال اتاتورك » فى هذا الزمان
 لولا ان الطفرة التى أراد بطرس قومه عليها كانت أكبر واعنف
 من تلك التى راض عليها اتاتورك أبناء بلده المحدثين ..
 والناس - مذ كانوا - أعداء ما جهلوا ... فكل طفرة من
 شأنها أن تجد فيهم مقاومة حاضرة ، ولو كانت الى الخير

والرخاء .. فما ان مات بطرس حتى سعت عناصر الرجعية الى الاستيلاء على زمام الامور ..

ولكن هيهات .. ! فان النهر لا يتجه القهقري من المصب الى المنبع أبدا ، يصدق ذلك في طبائع الاجتماع وعلم تقويم البلدان على السواء . فلم تفلح تدابير الحاكمين من بعد بطرس في رد النور عن الكهوف الرطبة المظلمة التي كانت تعيش فيها العقلية الروسية منذ قرون . فانتصر النور الجديد ، وبقي الجنى مطلق السراح ، والاقزام من حوله يقرأون التعاويذ لرده الى القمقم المكسور ..

فماظنك بعملاق كان حبسافي قمقم مظلم ، فاذا به يرى الدنيا لأول مرة ، ويرى حواسه تلتهم الاحساسات الجديدة طوفانا بعد طوفان .. ! ؟

انها النشوة الكبرى .. ! انه « جنون الحياة » و « حمى الاحساس » تسرى في جوارح العملاق الطليق ، وفي أعصابه ، وقلبه ، وتلافيف دماغه الذي تملكه الدوار لكثرة ما يرد عليه من الصور والاحاسيس .. فكانت تلك النخبة الممتازة من « التعبير الفني » الفريد ..

كان بوشكين ، وكان جوجول ، وكان تورجنيف ، وكان تشيخوف ، وكان تولستوى ، وكان دستوييفسكى .. انه ثوران البركان ، أو هو تحول محور الارض عن مكانه المرسوم في آفاق الفضاء ، أو مولد « مجرة » جديدة تهتز لمولدها نواميس التجاذب بين اجرام السماء ..

فالعبقرية هي غاية طاقة الخلق التي لا تتفتق الا في الحين بعد الحين ، ينبوعا خالدا خارقا للمعرفة الثاقبة الاحساس

مقدمة العربية

النافذة الى صميم الوجود ، حيث تلهو الملايين من البشر
بالقشور الاصداغ على شاطئه الضحاح ..

ذلكم هو قبيل دستويفسكى من نبلاء النوع الانسانى واعلامه
المبرزين .. فمن هو دستويفسكى ، ذلك النبيل بين النبلاء
والعلم الشامخ بين شوامخ الاعلام .. ؟

انه اصغر أبناء طبيب من اطباء الريف فظ الطبع ، خدن
دن وتبع نساء . سام زوجته سوء العذاب حتى ماتت وابنها
« فدور » فى سن السادسة عشرة يطلب العلم فى بطرسبرج
توطئة لتخرجه ضابطا فى جيش القيصر ..

بيد ان الخدمة فى جيش القيصر لم تكن هم ذلك الفتى
المتوسط الطول ، العريض الصدر ، الاشقر الشعر ،
الشاحب الحيا ، اللامع العينين ، وانما جل همه فى قراءة عيون
الادب الغربى ، ولا سيما مؤلفات شكسبير ، و « انوريه دى
بلزاك » القاص الفرنسى الضحل الذى يعتبره فدور أستاذه
وامامه فى فن الرواية ..

واذا كان المعهود فى ضباط الجيش القيصرى ان يحيوا
الرقص والشراب وصحبة النساء .. فما كان الضابط فدور
على شاكلتهم فى شىء من ذلك : فهو كتوم ، منطو على نفسه ،
نزر الكلام ، تشغله القراءة وترجمة آثار بلزاك - ولا سيما
« ايجينى جرانديه » عن ارتياد المراقص والمواخير . فما وافت
سنة ١٨٤٤ ، وقد بلغ الثالثة والعشرين ، حتى فصل من خدمة
جلالة القيصر لانه ابى النقلة الى الاقاليم ، مؤثرا البقاء فى
العاصمة بين الكتب والاوراق فى سكن متواضع لا يكاد يبرحه ليلا
ولا نهارا ..

وقد اختلف الناس في نسبة العبقرية الى مس من جن يسكنون وادى عبقر . ولكن الذى لامحل للخلاف فيه ان العبقرية شىء خارق . . حرى أن يلزمه اختلاف عن النمط السوى او المؤلف فى عناصر التكوين . . وبين الاختلاف والاختلال فرق ضئيل اذا كان ثمة فرق على الاطلاق . .

وقد تركت العبقرية طابعها ذاك فى تكوين « فدور دستويفسكى » فتركته فريسة سهلة لنوبات من الصرع شقى بها منذ يفاعته الى ختام حياته فى سن الستين . .

فصل دستويفسكى من الجيش فى الثالثة والعشرين من عمره ، فعكف على الكتابة والاطلاع ، فلما كان فى الرابعة والعشرين أتم روايته البكر ، التى قدر لها ان ترفعه الى قمة الشهرة والمجد الادبى دفعة واحدة ، حتى أصابه من ذلك دوار شديد . .

وهذه الرواية هى التى نضعها اليوم بين يدى قراء الشرق العربى :

المساكين . .

فهى أول ما جادت به عبقرية دستويفسكى ، فنوّهت به بعد خمول ، وأذاعت ذكره وأعلت قدره عند جمع النقاد وجمهرة الادباء والقراء . .

وقد بلغ من تأثيرها ان الناشر ، وهو رجل كاتب واديب متمكن من الصناعة الادبية . . فاضت دموعه على وجهه مدرارا وهو يقرأ تلك الصفحات النابضة بالاحساس العاطفى العميق . . وانه ليندر جدا - فى جميع ما حفلت به الآداب الانسانية - أن يجد المرء نظيرا لقصة « المساكين » فهى على بساطتها

من الصدق بحيث تلمس القلب فيتحرك لكل كلمة فيها ، ويعانى ما عاناه أبطالها « المساكين » . من عنت الدهر وقسوة الناس وجبروت القضاء ..

انها قصة كل مسكين فى هذه الدنيا أبت عليه الايام حق الانسان المقدس فى الحب ، وفى الرحمة ، وفى الحد الأدنى من العيش الكريم الذى يصون ماء الوجه ودماء القلب ..
انها قصة الحرمان ، بكل ما للحرمان من سطوة على مصائر بنى الانسان ..

فاذا خانك الدمع ايها القارىء - وسيخونك حتما - وانت تتلوها مستغرقا فى سطورها المتأججة بالشعور الجياش ، فلا تخجل من دموعك ، وأطلقها .. لانها ليست دموع الضعف التى تهدر الرجولة والانسانية ، وانما هى دموع الاحساس الكريم ، والاسى الرحيم ، لنفوس حرمت كل جميل ، وهى اهل لكل جميل ، لانها فطرت من النور ، وصبت الى النور ، فقضى عليها أن تتخبط فى غياهب الديجور ..

انها أحياء حرمت حق الحياة .. فما أحرأها بدمعك أيها القارىء الكريم .. وما أحرأها بقلمك إدستوى فسكى المبدع وفنه العظيم ..

مصر الجديدة

يناير سنة ١٩٥٢

صوفى عبد الله

هو وهى

٨ ابريل

عزيزتى المفداة بربارة الكسايفنا .: !
ما كان أسعدنى بالامس يا أختاه .. ! لقد كادت السعادة
تقطر من جوانحي ، لفرط ما فاضت فيها عذبة رقراقة ..
فقد فعلتها أيتها العنيدة الشמוש ، ونزلت - لأول مرة في
حياتك - على ما طالما توجهت اليك بطلبه ، راجيا ملتمسا .
لقد صحت أمس في نحو الثامنة مساء (فأنت تعلمين
يا أختاه مبلغ تعلقي بالنوم ساعة أو ساعتين حين أعود من
عملى) ، فأوقدت شمعتي وأعددت أوراقى وأقلامى . . ثم
رفعت رأسى مصادفة ، فاذا قلبى يدق في صدرى دقا عنيفا
متلاحقا .. لقد فهمت اذن ما كان يجنه قلبى ويتمناه فؤادى
المعنى .. فهذى أنت قد أزحت جانبا من ستار نافذتك ، وثبتته
في أصيص البلسم القائم في وسطها .. كما أوحيت اليك ذات
مرة في تلميح لم يغب عن فطنتك ..

بل خيل الى اننى رأيت من وراء زجاج النافذة وجهك
القاتن ، وكأنك وأنت في حجرتك تنظرين الى ، وتفكرين في .
وما كان أشد حسرتى - يا ملاكى - لاننى لم أك مستطيعا أن
أتبين في تلك العتمة ، وعلى ذلك المدى ، معارف محياك
الحبيب الى قلبى ..

لقد كان لى أنا أيضا بصر حديد يوما ما يا أختاه . ألا بئست
الشيخوخة يا صديقتى الحسنة .. فهأنذا الآن مثلا وقد بدا
لى كل شىء مثنى مثنى ، فما أكتب في العشى ساعة وجيزة
حتى تهتاج أعصاب بصرى فأصحو في الغداة محمر العينين ،
وللدمع منهما مسيل لا ينقطع وهميان لا يرقأ ، حتى ليركبني

الخرى من مرآى حين تقع على أنظار الناس ..
ولكننى رأيت ابتسامتك السماوية يا ملاكى .. بعين
وجدانى .. رأيتها يا أختاه ، فأضاءت بها روحى القابعة فى
الظلمات ، وسرى فى فؤادى ذلك الشعور الذى خالجه وجاش
فيه يوم قبلتك يا « قارينكا » .. أتراك تذكرين ذلك اليوم
يا ملاكى .. ؟

أتدريين أنه خيل الى انك كنت تهزين سباتك الحلوة فى
وجهى محذرة ، من وراء زجاج نافذتك أمس .. ؟ فهل هذا
صحيح أيتها الحميقاء ؟ لا تكتمينى شيئا من هذه التفاصيل
فى خطابك يا عزيزتى ..

والآن ، أما ترين فكرة رفع جانب من الستار كشفا موقفا
من كشوف الالهام .. ؟ فاذا جلست فى جوف الليل الى
أوراقى ، أو رقدت يقظان فى فراشى ، وسعنى فى كل حال أن
أعرف انك تفكرين فى ، وانك مانسيت صديقك الوامق ، وأنك
بخير صحة وفى أحسن حال .. حتى اذا أسدلت الستار تمام
الاسدال ، فهمت عنك أنك تقولين لى بصوتك الباغم :

— عم مساء يا صديقى .. وطاب نومك ، فقد آن أوان
النوم ..

ثم ترفعين الستار مرة اخرى ، فكأنك تقولين فى بشاشة :
— عم صباحا يا صديقى .. هل نعمت بنوم هنىء .. ؟
وكيف أصبحت اليوم .. ؟ فأنا بحمد الله بخير وعافية ..
أرأيت يا صديقتى كيف صار الكلام بيننا متصلا بغير حاجة
الى التدوين والتحبير .. ؟ أما تريننى صاحب خيال وأخا
حذق وزكاة حين ابتدعت هذا الفن من ادب الرسائل .. ؟

لقد طاب رقادي ليلة امس ، وما كنت اتوقع ان يطيب ..
 فان اول ليلة يقضيها المرء في مسكن جديد خليفة ان تحفل
 بالارق والقلق لغياب الالفه وتغير العادة .. ولكنى فتحت
 عيني هذا الصباح ناشط الجسم متفتح النفس فكأننى باز
 من الصقور حن للصيد والطراد في أجمة حافلة بالفرلان ..
 لقد كان صباحنا اليوم رائعا يا أختاه ، فما فتحت نافذتى حتى
 دخلت أشعة الشمس الساطعة ، وتدفق في أذننى تغريد الطير ،
 وفغم معاطسى عبر الربيع الطيب النفحات العاطر الاردان ..
 فكأن الطبيعة قد بعثت من موات ، فهي فرحة نشوى ، وكل
 شيء فيها يشاركها في أفراحها ويسهم في حفل زينتها الفينان !
 حتى انا يا عزيزتى ، قد أسهمت في أفراح الربيع ، وسرت
 في جسدى الواهن روحه الشابة . وكان سهمى يا أختاه في
 أفراح الربيع اننى استسلمت الاحلام ، فكنت أنت ملء حلمى
 بالحياة والشباب ، والربيع .. فتبدت لى في احلامى طائرا
 جميلا صغيرا من طيور السماء .. فما يعرف ابناء الشقاء من
 أبناء الفناء خلقا أولى بغبطتهم بين خلق الرحمن ، من الطير
 المفردة بين الافنان ، تحلق وتحط أين شاءت ، ولا يكلفها
 المعاش معاشرة بنى الانسان ..

ولكن الاحلام على حلاوتها شئ اليم يا قارينكا .. فانها
 تنتهى الى حشرات ، متى أفاق المرء على الواقع الدميم ..
 دميم .. أجل .. ولا مهرب منه .. فدعينا من الاحلام
 يا قارينكا وخبرينى كيف حالك ، وكيف حال « فيدورا »
 معك .. أحسب عشرتها تطيب لك ، فهي هادئة طيبة القلب ،
 وتحت مظهرها الجافى باطن لين المهاد من الرحمة والحنان ..
 لقد حدثتك من قبل عن « تيريز » التى تقوم على خدمتنا

هنا ، وهى كصاحبتك « فيدورا » ممن فطرن على الطيبة
والرحمة . . وقد رفعت عن صدرى هم رسائلنا وكيف
نتبادلها خلسة من أعين الناس وسوء مظنتهم . . فستولى
تيريز هذا الامر عن طيب خاطر ، فهى رضية الخلق ، على
نقيض صاحبة البيت التى ترهقها بالعمل الشاق وتسيء
معاملتها اساءة ليس عليها من مزيد . .

ولا حدثك الآن عن مسكنى الجديد . وانه لعمري لمسكن
غريب ، غريب فى نظرى على الاقل . . فقد تعودت فيما
سلف من مساكنى هدوء البال والصمت ، فلا تسمع فى البيت
نأمة ، واذا طنت ذبابة فى هوائه كان طنينها حدثا يسترعى
الاذان . . اما هذا البيت ، فهو جهنم التى لا يكف لزبانيتها
ووقودها صخب وضجيج . .

فتخيلى يا عزيزتى دهليزا طويلا ، شديد العتمة ، شديد
القدارة ، جداره الايمن ليس به شئ ، واما جداره الايسر
فسطر من الابواب المتشابهة المتعاقبة على مدى متساوق
كأبواب حجرات الفنادق . . وهذه هى أبواب الغرف المؤجرة
للساكين ، ومنها ما يكتريه مستأجران او ثلاثة مستأجرين
وأما النظام فأمر لا يجرى له ذكر فى خاطر احد من أهل
هذا المكان . . فكأنه فلك نوح !

بيد أن النصفة تقتضىنى أن أشهد للسكان بالظرف . .
فمعظمهم من أهل الثقافة والعلم . . وان كان فيهم نفر من
الضباط ، واولاء لا هم لهم الا المقامرة ان ليلا وان نهارا ، لا
يجدون عنها منصرفا . .

اما صاحبة البيت فأعوذ برب الفلق من شر ما خلق . . !

انها عجوز قصيرة القامة خبيثة .. بينها وبين النظافة ترة !
ولا هم لها سحابة اليوم الا التنقل في البيت في زى حائل
اللون وخف بال ، لتتعقب الخادم تيريز بقوارص الكلم .. !

وأما أنا، فمقامي في المطبخ ! ليس فيه تماما ، بل في حجرة
صغيرة ملحقة به (ولا تنسى أن مطبخنا في هذا البيت حسن
النظافة طيب الرائحة مريح يتخلله النور والهواء) . واذا أردت
التدقيق ، فاعلمي أن المطبخ متسع جدا ، له ثلاث نوافذ ،
فأقيم في وسطه حاجز أو ساتر جعل منه حجرتين ، فخرجت
لى تلك الحجرة التي نعمت بسكناها ، وفيها تلك النافذة
التي أرى نافذتك منها .

ولا تنسى أن هذا الموضع يتيح لى العزلة ، فلا تصل الى ضجة
سائر السكان ، ولا يكاد أحد منهم يحس لى وجودا .
وقد جعلت فيها مائدة صغيرة للاكل والكتابة ، وفراشا ، ومقعدين
وصوانا صغيرا ، وعلقت على الجدار ايقونة ، فما ينقصني فيها
شيء على الاطلاق .

ولست أجد أن من المساكن ما يفضل هذا السكن فضلا بينا،
ولكن أوجه الراحة التي تلزمني شخصا بصفة خاصة تتوافر في
هذا « الركن » الهادئ توافرا لا مزيد عليه ، وأنا امرؤ يتوخى
الراحة ولا يكثرث للابهة والبذخ

وهل من راحة أروح لى من تقابل نافذتنا ، لا يفصلهما الا
فناء دارك ؟ وانه لعمري لفناء ضيق الرحاب ، أراك فيه غادية
أو رائحة فكأننى لو مددت ذراعى حرى أن ألمس جدائل شعرك ..
فيتبدد شفقائى وتحبب الى الحياة ...

وثم مزية أخرى لا تنكر ، فهذا السكن رخيص ، يفيض لى من
كرائه ما أشرب به الشاي ، وما كنت أذوقه الا لماما . ولا سيما

أن أهل هذا البيت قوم ذوو يسار ، فاحتساء الشاي عندهم
فريضة ، فلا يخلق بي أن أشدعنهم . وأما ما بقى من راتبي
الصغير فمن لطف الله أن يسد خلاتي المتواضعة ، كخصف نعل
يبلى ، أو تبديل ثوب يخلق أو معطف يرث .

وما أشكو زمانى ، فحاشاى أن أشكو وقد زاد مرتبى فى
السنوات الاخيرة حتى بات يحسدنى عليه الكثيرون من نظرائى .
ولا يخلو عام من مكافأة عارضة أو هبة على وجه الاستثناء .
وقد اشتريت لك اليوم اصيصين من البلسم وأصيصا من
زهرة الراعى (الجيرانيوم) وجدتها زهيدة الثمن . ووجدت عنده
كذلك اصصا من الفاغية حسانا، فاذا رغبت فى شىء منها فاذكرى
ذلك فى جوابك ، فليس الدكان بعيدا ، وأثمانه ليس فيها شطط
واياك أن ترجعى سكنائى فى هذا المكان المتواضع الى غير سببها
الحق . فما بى والله ضائعة ولا خصاصة، فانى ادخر لبارحات
الايام شيئا من المال يفيض عن حاجتى . وانما هو التماس
الراحة ، والسعى الى قرباك .

لقد أطلت عليك . . . ووقت عملى قد أزف ، فاستودعك الله،
واطبع على أناملك الرخصة قبلة اعزاز من

وليك الوامق

((مقار ديوفشكين))

ملحظ : استحلفك أن تردى على فورا . وأرجو أن يعجبك
رطل الحلوى الذى أبعث به اليك مع هذا الخطاب . والى اللقاء
أيتها الاخت .

٨ ابريل

عزيزى السيد مقار

أتعلم أن الامر قد ينتهى بيننا الى الخصام ؟ فانى وايم الله لأجد

فى نفسى ألما لما تقـدمه الى من الهدايا والالطاف ، فليس غائبا
عنى ما تتجشمه فى هذا السبيل من التضحية ، وما تحرم نفسك
من الضرورات من أجلى . وكم من مرة كررت على أسماعك اننى
لست بحاجة الى شىء على الإطلاق ، وأن ظروفى لا تسمح لى أن
أبادلك أطفافك الحسان بأطفاف من مثلها أو تقاربها . ثم ماذا
عسيت أن أفعل بكل تلك الاصص المزهرة ؟ واذا تفاضيت عن
البلسم ، فماذا ترى أفعل بزهرة الراعى ؟ أهذا عقابى لأننى أعجبت
باحداها أمامك عرضا ، وبغير اكتراث ؟ . . وما أظن الا أنها
كلفتك كثيرا . . . فهى جميلة حقا . . . لقد وضعتها على كل
حال فى منتصف النافذة ، فى مكان الشرف ، وجعلت أمام
النافذة رفا ثانيا يتسع لمزيد من اصص الازهار التى سأشتريها
يوما ما . . . حين يواتينى مثيل ما تنعم به أنت من الثراء ! وقد
سر « فيدورا » ما أضفته هذه الازهار من الرواء على حجرتنا،
حتى باتت وكأنها جنة النعيم .

ولكن لماذا بعثت كل تلك الحلوى ؟ الحق اننى تشممت شيئا
غريبا من ثنايا سطورك الاولى ، فقد أكثرت الحديث عن الربيع
والزهر والشباب وشذى العطر وغناء العصفير ، حتى توقعت
أن تقع عينى فى السطور التالية على قصيدة عصماء ! أهمل غدوت
الآن من زمرة الشعراء ؟ لست أراك ينقصك من عدتهم شىء :
فلديك الاحلام الوردية ، والعواطف الرقيقة المتدفقة ، ولا أحسب
الوزن والقافية يعييانك !

أما الستار يا صاحبى ، فما فكرت أمس فى ازاحة جانب منه
كما وهمت . . . وانما هو قد أزيح عفوا ، ويغلب على ظنى ان ذلك
قد حدث وأنا أرتب الاصص فوق رف النافذة . . . لهذا لزم التنويه !
وأما ما حاولت من اقناعى بيسر حالك ، فأمر لا يقنع أحدا ، ولا

سيما فتاة مثلي تعرف مداخلك ومخارجك ، وترى مبلغ ما تتحامل به على نفسك في سبيلها . . حتى اضطرت الى ذلك السكن الذي يقل عن مستواك كثيرا ، فقد خبرتني « فيدورا » ان مسكنك السابق كان خيرا من هذا السكن بكثير .

ولكن خبرني : هل أنفقت جميع عمرك متنقلا بين البيوت المفروشة ، تعيش وحيدا فريدا بين غرباء ، لأنيس لك ولا صديق ، وليس من صدر حنون تطمئن اليه وتسمع منه لفظا رقيقا يجلو عن قلبك الصدا ؟ . .

تالله كم أرثى لك يا صديقي ! ثم لماذا تشتغل في الليل على ضوء الشموع ، مادام بصرك يتأذى من نورها ؟ وما أحسب رؤساءك الا مقدرين لك سابقة فضلك وحسن بلائك في عملك . .

لقد صحت اليوم منتعشة النفس كما صحت أنت ، فاشتريت حريرا وانصرفت الى العمل في جذل . . ولكن الضيق عاد الى ركوب كاهلي . فماذا يخبئ لي الغد من الاحداث ؟ أو تراني سأظل على هذا الحال ، وخير منه برودة الموت وظلمة القبر . . فليس في حاضري ما يشجع على الاستبشار بالعيش والرضى بالبقاء . وليس في ماضى حياتي - وما أكثر ما ترود حولي أشباح ذلك الماضى - الا ما يسوء ويحزن . . فما تكفى بحار الدمع لغسل ما رسب في نفسي من المرارة والحزن على ما لقيت من ظلم الناس ، بغير جريرة جنيتها . .

لقد أوشك الليل أن يخيم ، فاستودعك الله وان كانت الكتابة ترفه عنا ما نلقى ونعاني . . ولكن لماذا لا تأتي لزيارتى يوما ؟ افعل بربك ، وسأرفع جانب الستار الليلة ، وعمدا في هذه المرة ، وطاب ليلك .

بربارة

٨ أبريل :

سيدتى بربارة العزيزة !

جاءنى خطابك ، ورأيت بين سطوره مبلغ سخافة كهل فى
سنى اذ يتحدث عن الشمس والزهر والربيع .. فشكرا لك
على هذا التنبيه ..

ولكنى لأدرى لماذا يتبادر الى ذهنك اننى محروم من شىء ،
أو انك تكلفيننى ما لا أطيق . كلا .. فانى فى يسر والحمد لله .
ثم كيف خطر لك أن تطلبى منى ان أزورك فى حجرتك ؟ أما
تقدرين ماذا سيقول المتقولون من السنة السوء ؟ انى أود أن أحظى
بزيارتك ، علم الله ، ولكن أليس الحذر خيرا وأولى ؟
ليتنى أراك غدا فى صلاة العشاء بالكنيسة ، فمثل هذا
اللقاء أليق وأسلم عقبى ..

لقد رأيتك وأنت تزيحين الستار ، ثم تبينت وجهك وأنت
تسدلينه قبل النوم . . . فشكرا يا عزيزتى ، ألف شكر .
ورعاك الله وأبقاك يا بربارة لصديقك الصادق الود

مقار ديو فشكين

٩ أبريل :

عزيزى السيد مقار

أترانى قد أسأت اليك وخذشت شعورك بخطابى ؟ ان هذا
لم يخطر ببالى اذا الفضل الذى يطوق عنقى أبد الدهر .. وانما
هى خفتى التى تغلب على لسانى ، فيخيل اليك اننى أتهكم ،
وحاشاى أن أتهكم أو أعرض لك الا بكل حمد وثناء .. ولعلنى
ما انزلت الى ذلك المزاح البرىء الا لما خيل الى من غلبة المزاح
والمرح على خطابك . فغفوا يا عزيزى ، ولا يخامرنا شك فى
اجلالى واعجابى بمزاياك وسجاياك اعجابا لا مزيد بعده لمستزيد .

انى صحوت اليوم ضيقة الصدر ملولا . ثم اعترتني رعدة
وغشيتني الحمى ، حتى أقلت حالتى « فيدورا » . فتعال
لزيارتى يا صديقى ، ولا يغلبن عليك الحرج ، فليس فى زيارة
بريئة ما يضير ..
فاغفر لى مرة أخرى ، وتعال لاراك

بريابة

١٢ ابريل

عزيزتى السيدة بريابة :

ماذا بك يا أختاه ؟ أما تكفين يوما عن اثاره القلق فى نفسى على
صحتك المرهفة ؟ ألسنت قد كررت عليك فى كل خطاب كتبه
اليك ، ألا تخرجى فى البرد ، وأن تتدثرى بالملابس الدفيئة؟ ولكنك
وأسفاه لا تصفين الى ما أقول، ولا تلقين اليه بالا . فما أنت
يا يمامتى الا طفلة وان تقدمت بك الايام الى ميعه الشباب . وما
أوهن صحتك وأوهى عودك ! فلا تهملى أمر نفسك يا أختاه، حتى
لا تلقى بمن يحبونك فى أتون القلق المقيم والقنوط الأليم .

لقد سألتنى عن جيرتى الجدد، وانى محدثك من أمرهم بما تناهى
الى علمى أو مارسته بتجربتى القصيرة

وأول ما يسترعى انتباه الانسان فى هذا البيت ، أن له
رائحة غريبة ، ولا أقول كريهة .. ولكنها قد لا تستساغ لأول وهلة،
حتى اذا مكث المرء فى البيت دقائق معدودات تشبعت يده
وأنفه، وعيناه ، وثيابه ، وجميع جوارحه وملابسه بتلك الرائحة،
فلا يحس لها بغد هذا وجودا .

والبيت منذ بكرة الصباح كخلية النحل ، فمواقد الشاى
(الساموفار) فى البيت قليلة ، وهى كلها ملك لصاحبه العجوز،
فكل انسان له دور معين فى الحصول على نصيبه من الشاى

الحار .. ومن تقدم قبل دوره أصابته ضربة من جريدة فى يد ربة البيت ، فيصيح السكان مهللين !
وحول مواقد الشاى . وفى انتظار دورى ، تعرفت بجيرانى وعرفت أحوالهم .. أما فى الليل ، فليس الى النعاس المتصل سبيل ، لان الضباط يسهرون فى حجرة واحدة يلعبون فيها الورق ويصخبون معربدين فى الفينة بعد الفينة .. ثم هناك أصوات أخرى تنبعث من هنا وهناك ، تنم عن أمور تجرى فى جنح الظلام يخجلنى الحديث عنها لاي انسان ، فضلا عن ملاك مثلك . ولكن ما يدهشنى حقا ، هو كيف يتسنى لاسر ذات ولد أن تعيش بأطفالها وسط هذا الفسوق المفضوح .. ففى البيت أسرة من هذا الطراز فاضلة تعيش فى حجرة واحدة ، لا يكاد يحس المرء لهم وجودا ، فهم منطوون على أنفسهم ، وحين ينامون فى الليل يجعلون فى الحجرة فاصلا من القماش بين منام الوالدين ومنام الاطفال الثلاثة .

والاب رجل هادى جدا ، فصل من الوظيفة لسبع سنين خلت لسبب مجهول ، واسمه « جورشكوف » ، فهو زرى المنظر والملبس ، الى درجة تثير الالم فيمن يراه . وأحسبه مصابا بمرض علمه عند الله ، فركبته ترتعدان ، ويداه ورأسه وكل شئ فيه يرتعد .. واذا مشى لاذ بالجدران حتى لا يلحقه أحد . . . أما امرأته فيبدو انها كانت ذات حسن قبل أن تذوى نضرتها احداث الزمن .. والحديث عن فقر هذه الاسرة لا ينتهى ، فهم فى ضنك شديد . ويقال ان الرجل ينتظر الفصل فى قضية يتعلق بالحكم فيها كل أمل له فى المعاش الكريم .

وأهول ما يهولنى من أمر هذه الاسرة اننى قد أمر بحجرتها وفيها الاطفال ، فلا أسمع أدنى نأمة ، وتلك آية سوء ومحنة

شديدة ، فمايسكت الاطفال الا عن كرب شديد ومذلة ماحقة ..
وما يذكر أحد في البيت انه سمع أطفال « جورشكوف » صارخين
يوما أو ضاحكين أو باكين ، فكأن حجرتهم قبر صامت .. وما
ورد ذكرهم على خاطري مرة الا ركبنى من ذلك هم ، وجفا النعاس
أجفاني .

والآن سلاما يا عزيزتى « فارينكا » فقد غامت نفسى لذكر
هؤلاء المساكين .. وما كنت أود أن أصف لك حالهم ، لولا أنك
ألححت فى معرفة جيرتى الجدد، فهاك هم .
واغفرى لى ياملاكى ماترين فى كتابتى من قصور فى التعبير
وعجز فى الوصف والتصوير ، فما أنا الا كهل جاهل فاتته قافلة
العلم صغيرا ، لانه كان أفقر من أن يتعلم ..
وانى لك على الدوام الصديق الصادق الاخاء

مقار ديوفشكين

٢٥ ابريل

عزيزى السيد مقار

قابلت اليوم بنت عمتى « ساشا » ، فواحسرتا عليها ! انها
تكاد تقضى بعلتها القاسية .. وقد علمت منها أن « أنا
فيودروفنا » مجتهدة فى استقصاء خبرى ، وتزعم انها
على استعداد للصفح عما فعلت وتعتزم أن تزورنى قريبا ..
وعلمت كذلك انها تتقول عليك ، وتزعم أن قرابتك لى لاتخولك
القيام على شأنى ، وانها هى أمس رحما بى منك ، وان من
العار أن أقبل منك المعونة فيما يقوم بأودى .. وانها تنحى
على باللائمة لاننى جحدت فضلها السابق على أسرتى ! وحتى أُمى
لم تعفها فى ثراها من التقريع والتشهير والافتراء .
وأدهشنى انها تصر على خطئى ، واننى قد ضيغت فرصة
السعادة المتاحة التى هدتنى اليها فالتويت بها عن غايتها ..

بل انها تزعم أن « بيكوف » كان محقا اذ رفض الزواج منى ، فما
ينبغي أن يتزوج الانسان من أول فتاة يجدها بين ذراعيه . .
رباه ! ان هذا فظيع ! أما كفانى ما لقيت من هذا التاريخ
الاسود ، حتى أتجرع غصص الغبن وسوء التقدير ؟ عفوك
يا صديقى لهذه الثورة ، فانى لأملك نفسى من البكاء والنشيج .
ولا تلق بالآلى تهويلات فيدورا عن صحتى ، فانى خير مما
تصور لك بكثير . . . وانما هو برد طفيف أصابنى حين توجهت
أمس الى القداس الذى يقام فى « فولكوفو » على روح أمى
المسكينة . . .

لك الله يا أمى ! ليتك تخرجين من قبرك ، وليتك تعلمين
وتشهدين ما ألقى من بعدك ، وانه لاهون الهوان وأفدح الحسران !
برهارة

٢٠ مايو :

يما متى فارينكا :

اليك يا يما متى شيئا من العنب ، فهو فى رأى الاطباء مما
تصلح به النقاهاة ويدنو به البرء ، وليس كمثله شىء لنقع الفلة
الصادية . . . واليك أيضا شيئا من الخبز الابيض ، سمعتك
تشهينه منذ أيام ، فعسى أن تكون شهوتك للاكل طيبة ، فذلك
هو لباب العلاج من دائك . . . واحمد الله أن ظلاله القاتمة
انجابت عن جسـدك الرقيق ، فانجابت بذلك عن قلبى سحب
الجزع المضى . ألف شكر لله على تلك المنة العظمى يا أختاه .
وأما ما حدثتك به فيدورا عنى فلا تصدقيه ، فلم يخطر لى
قط أن أبيع كسوة عملى الجديدة . فلماذا أبيعها ؟ لماذا بالله عليك؟
فالمال لا ينقصنى ، وسأقبض مكافأة طيبة عما قريب . فلا
تلقى بالآلى ترهات فيدورا ، ولا تهتمى الا بما يعجل شفائك ،

فانك ان شفيت سريعا اتحت لنا اكمل سعادة تتاح للبشر في الحياة الدنيا .

ثم منذ الذي زعم لك اننى قد ضمر عودى وأصابنى الهزال؟ محض افتراء ! فأنا في خير حال، بل أحسبني سممت سمنا خليقا أن ينجلني من نفسي .. فليس ينقصني شيء ، وأما الطعام والشراب فاني أصيب منهما شبع بطني ... وليس ينقص من سعادتى الا مرضك ، فابرئى منه تتم لى نعمة الله جميعا . واستودعك الله يا عزيزتى ، ناثرا على أناملك الدقاق ألف قبلة من

صديقك الذى يحفظ عهدك ويرعاه

مقار ديوفشكين

ملحظ : لا تلحى على فى الزيارة ، فقد زرتك حين غيبتك الحمى عن وعيك ، ولكنى لم أعد اليها لما رأيت الهمس قد بدأ ينوشنا بما لا يرضى الحق .. فلو زرتك الآن فما عسى أن يظن الناس بنا ؟ فاصبرى حتى تشفى ثم ندبر بعد ذلك أمر لقائنا فى مكان بعيد عن بيتينا ...

أول يونيه

عزيزى العزيز :

كم وددت أن أقدم لك شيئا ينهض بمعروفك وأياديك البيضاء ولكنى لا أملك الا قلبى العارف بالجميل ، الحافظ للود ، المغمور بفضلك العميم ورحمتك وبرك ، وما تجشمت من مشقة وعناء وقلق أيام مرضى الطويل .

ثم عن لى ، فى لحظة اشراق روحى ، أن أنقب فى درج الذكريات الذى احتفظ فيه بتذكاراتي القليلة ، حتى وجدت الكراسية التى كنت قد بدأت فيما مضى أدون فيها قصة أيامى ، يوم كان للسعادة والعناية بقصة أيامى موضع .. وانى أبعث اليك بها

الآن لتقرأ صفحاتها القلائل ... فهي أعز ما عندي ، لأنها مرآة
سريرتي ..

فكثيرا ما سألتني يا صديقي عن سالف أيامي ، وعن أمي ،
وعن « أنا فيودرو فنا » ومقامي في بيتها زمنا ، ثم عن الكوارث
التي انحدرت بي الى نهائتي الراهنة . فعسى أن تجد جواب
سؤلك في هذه الصفحات التي سودتها في أوقات متباعدة ..
أما أنا يا صديقي ، فما وجدت في تلاوتها اليوم الا ما يثير الكآبة
ويشيع المرارة في نفسي

ووداعا يا مقار .. فاني أرزح تحت عبء من السأم والملالة ثقيل ،
وقد بات الارق يلزمني في هذه الايام حتى جعل نقساهتي
كالصحراء الموات لا نابتة فيها تصافح العين أو نائمة طير تؤنس
الأذن ..

بريارة

أصداء الزمان

صفحة طويت ..

لم تكن سنى قد جاوزت الرابعة عشرة حين مات أبى ،
فانتهى بموته عهد طفولتى ، اسعد عهود حياتى بالاطلاق ...
آه لذلك العهد الذى مضى ولن يعود ! لقد نعمت به زمنا رغدا
فى بلد غير هذا البلد ، بعيد موغل فى البعد ، فى موضع من
الريف قصى .. فقد كان أبى حينئذ ناظر أملاك الأمير « ب »
فكنا نقيم فى قرية من القرى التى تضمها أملاك ذلك الأمير .
شد ما طابت لنا تلك الإقامة التى يرفرف عليها الهدوء ،
وتكتنفها الطمأنينة ! .. فقد كنت فى ذلك الأوان فتاة دافقة الحيوية
كثيرة الحركة ، فكنت أقضى معظم أوقاتي راتعة بين الحقول ، ضاربة
بين الاحراش والآجام ، أوالعبة فى البستان المزهر الحافل
بأفانين الشجر والريحان ، لا يعترضنى أحد ، ولا يتعقبنى
بالرعاية انسان : فأبى دائم الشغل بما تقتضيه ادارة الضياع
الواسعة من جهد وحركة ... وأمى لاتدع لها شئون البيت
فسحة من فراغ . فلم يعن بتعليمى احد من ذوى ، وتركت
على سجيتى .

وكم من يوم تسملت من البيت « والشمس فى خدر أمها ، والطل
لم يجر ذائبه » ، لأشهد يقظة الطير فى البحيرة المجاورة ،
وخروجه من وكناته ناشط التحية الحياة بخفق اجنحته وانغام
صداحه المتجاوب بين الارض والماء والسماء ...

وكم من نهار قضيت سحابتة فى الغابة بين الشجر الالفاف ،
والدوح السامق ، والظلال التى لا يسبر غورها البصر .. او فى
الحقول التى انتشرت فيها مناجل الحصاد ، أرقب الحاصدين
والحاصدات والعرق يتصبب كالجمان على وجوههم ، والقمح
كأنه الذهب الوهاج بين ايديهم وفى احضانهم .. غير مكترثة
لوهج الشمس ، او للوحدة فى البرارى والاحراش .. حتى اذا

عدت الى الدار أنبنى والدى أوقرعتنى أمى ، فما كنت آبه لذلك
فتيلا ..

وأحسبني كنت قمينة الاسماء تلك الحياة بين أحضان الطبيعة ،
لو انها دامت الى ماشاء الله ... بيد ان الايام لم تسنح بما أهوى
وكتب علينا ان نغادر ذلك المقام الهنيء الى « بطرسبورج » ، وأنا
بعد طفلة فى الثانية عشرة ... وما ذكرت يوم رحيلنا مرة الا
استهللت بالدمع عيناي .. فقد بكيت بكاء مرا وانا اودع كل ترب
من أترابى ، وكل صديق من أصدقائي .. وكل انسان ، وكل
حيوان ، وكل نابتة فى الحقل كانت صديقا لى نعم الصديق فى
ذلك العهد السعيد ..

وانى لا أذكر اننى تعلقت بعنق ابنى فى ذلك اليوم وتوسلت اليه
باكية ان يتركنى فى القرية زمنا قصيرا ، اتزود من تلك الربوع
بما يسلينى اذا ذكرتها وقد نزحت الدار وشط المزار ،
فاستشاط ابنى غضبا ... اما أمى فانفجرت باكية وقد هاج
دمعى عند الوداع كامن حزنها وشجها ... ثم همست فى
اذنى ان الاحوال قد تبدلت غير الاحوال ، فقد مات الامير « ب »
الشيخ صاحب الضياع ، فاستغنى ورثته عن خدمات ابنى
فلم يبق مناص من النقلة الى بطرسبورج ، حيث كان ابنى قد
استودع نفرا من معارفه ما ادخره من مال يسير ، لعله يجدد فى
ذلك البلد رزقا ويجعل الله له فيه بعد عسر يسرا ..

.. كذلك حث خطانا الايام من منزل السعد فى أقصى الزيف
الى ان انزلتنا ذلك المنزل النكد فى ضفة بطرسبورج اليمنى ،
حيث عشنا عامين مات فى ختامهما أبى وانا لا اعدو الرابعة عشرة من
عمرى ..

وشد ما كلفنى تغير الامور من حولى ، فلا اجد شيئا مما ألفت ،

اصداء الزمن

ولا علم لي بما يتكشف عنه قناع الغد • فكأنني في متاهة من حيرة العقل والضمير ..

وكيف لا ، وقد غادرت القرية وشمس الربيع تبعث الحياة في كل شيء ، حتى في أطلال الاكواخ وأحجار الطريق ! فاذا بي أصل الى بطرسبورج فألفيها متشحة ببرودة الخريف المكفهر ، فلا شمس ولا حياة ، ولا الافق يترامى ما امتد البصر ، فلا يرتد وهو حسير .. ولا الطير غاد رائح على حقول القمح اسرابا اسرابا ، وأصواته تشيع في الهواء الفرح وتبعث النفوس المنطوية على التفتح للحياة نافضة عنها الاحزان

كلا ! ذلك كان في الريف ، أما في بطرسبورج فالمطر والضباب ، والبيوت القائمة في كل مكان كأنها سجون الابصار والارواح ! وأين من اسراب الطير الصادح وحذاء الفلاح الكادح تلك الجموع من اهل الحاضرة الكبرى يتزاحمون ويتدافعون ، ولا آصرة بينهم ولا ألفة ، فكلهم غريب ، وما من غريب فيهم للغريب نسيب ! فكلهم مشغول بشأنه ، مزور عن غيره ، لا يرد التحية الا متأففا ، فالملل ، والتمرد والتبرم بالحياة طابع المدنية الغالب على أهلها فكأنهم اشباح حكم عليها بالعذاب في واد من وديان المطهر ، يريدون لو فروا ولا يستطيعون ..

صنع الله لي ! فما كان اضيق صدرى حين فتحت عيني على أول صباح لي في بيتنا الجديد ، بعد ليلة تحالف الكرى وجهد السفر فيها على أجفاني .. لقد نظرت من نافذة دارنا الجديدة ، فاذا خربة مسورة وشارع قذر لا ينقطع عنه مورد الوحول والاوساخ ، لا يمر به الناس الا نثارا متفرقين ، وعليهم أدثرة ثقال .. فيعدي مرآهم الناظر برعدة البرد الزمهرير ..

وكأنما كان ذلك المنظر الخارجى آية على نمط حياتنا القابلة : فلم يمض علينا يوم في ذلك البيت بدون مكد ، ولا سيما من جهة

المال . فقد اضطربت أحوال ابى ووقعت بينه وبين « أنا فيودرو فنا » جفوة بسبب دين لها عليه مطلقها اياه مكرها لسوء حاله . وما اكثر ما كان يزورنا قوم مستأدين حقهم فيكثر الصياح والنقاش ، حتى اذا خرجوا نفت فينا ابى غيظه المكتوم ، وصب علينا جام غضبه او انشأ يذرع البيت ساعات طويلة لا ئذا بالصمت متجههم الاسارير ، فلا تجرؤ أمى على خطابه . . . واما أنا فأنتحى ركنا قصيا لأقرأ فى كتاب ، محاذرة ان يند عنى صوت ينبه الى وجودى . . .

وما انقضت على نقلتنا الى بطرسبورج ثلاثة اشهر حتى ادخلونى مدرسة داخلية . فشيق العيش فيها على نفسى بادية ذى بدء ، لما فى تلك المعاهد من وحشة وصرامة . فضقت ذرعا بالمربيات والمعلمين ، وسئمت الحياة فى شهورى الاولى هناك ، فكم من ليلة قضيتها ساهرة يأبى النوم فيها ان يزور مقلتى المقرحة الاجفان . وكم من أمسية جلس الطالبات للاستذكار تحت رقابة مشرفة عبوس ، قضيتها جالسة مثلهن امام الكتب والاوراق ، فلا أرى منها شيئا ، لان خاطرى قد انطلق بعيدا ، الى حيث ابى وامى ومرضعتى العجوز التى طالما اسمعتنى احاديثها وأقاصيصها العذاب فاستهوت خيالى المشيوب . . حتى اذا عدت من رحلتى الحاملة ران الاسى على نفسى حتى لتشتهى الموت . . . فأين من ذلك الصمت ، ومن هذا النظام الصارم ورعاية السمات ، دفء البيت ، وحرية الحركة فيه وقبله الام الحنون التى تشرح الصدر الحزين . .

فاذا أصبح الصباح كنت اجهل التلميذات بدروسى ، فيعاقبنى الاستاذ الهضيم الوجه بالركوع فى مقدمة الفصل ، ويحرمنى من وجبة الغداء ! فأضحى أضحوكة التلميذات ، ومثار هزئهن . وتمادى فريق منهن فصار يعابثنى ، ثم

يشكونى الى المشرفة ظالما .. فأظل طول ايام الاسبوع فى كرب شديد الى ان تأتى مرضعتى مساء السبت لتصحبنى الى البيت ، جنتى الموعودة .. فأدخله مشرقة الاسارير ، وقد أنسيت بدخوله ما أشقانى فى البعد عنه . فاذا جلسنا للعشاء جعل أبى يسألنى عن مدى ما حصلت من العلوم ، ومن اللغة الفرنسية على الخصوص ، فقد كان الرجل يقطع من لحمه ودمه لينفق على تعليمى ، فحق له ان يستأدينى الجد والاجتهاد ومضت الاسابيع تباعا ، وشبح الضنك تتعالى دقاته على بابنا أسبوعا بعد أسبوع ، فأرى صدى تلك الدقات على وجه أمى وسحنة أبى ، واسمعه قوارع لاذعة يصيبها أبى على رأسى وعلى رأس أمى المسكينة لسبب تافه أو لغير سبب على الاطلاق

وانحدر الرجل الى هاوية الشيخوخة الباكرا انحدارا سريعا ، بما أكل الهم من قلبه وما عب من دمه .. فلما أصابه البرد ذات يوم اودى به كما تودى الريح بالسراج ، فلم يمهل الا أياما معدودات .. فقضت أمى أياما بعدموته لاتفقه ما حل بنا ، فقد استعصى على فهمها أن تصدق انه مات بتلك السرعة ، وتركها فى خضم الحياة وتركنى بلا سند ولا معين . وما غوثر أبى قبل أوانه حتى انشقت الارض عن دائنين عدد الحصى والرمال ! فاضطررنا الى الخروج لهم عن كل شيء ، وصرنا بلا مأوى ، وبلا مورد يمسك علينا أودنا وماء وجوهنا .. وكانت أمى تشكو ضعفا عاما وانحطاطا شديدا فى قواها لا شفاء منه الا بتغذية جيدة بتنا ولا طاقة لنا بها .. فكأننا على شفير هار .

وفى تلك المرحلة القاسية من حياتنا أقبلت علينا

«أنا فيودروفنا» ، وفتحت لنا صدرها ، زاعمة أن لها مالا يغل عليها ما يفيض عن حاجتها ، وانها من ذوات قربي أبى ، فهي مسئولة أن تجنبنا ذل المسغبة . وأظهرت من الرقة لنا ما عطف قلبينا نحوها ، وكيف لا ، ومثلنا ومثلها كمثل الارض الموات والسحاب المطر القدق .

فلما دعتنا الى الإقامة في بيتها لبينا الدعوة ، لانه لم يكن عن تلبيتها محيص .. وانتقلنا الى منزلها في حي « فاسيليف » ذات صباح مقررور الانفاس ، مشعشع بأشعة الشمس وكأنما أصابت حرارة الشمس في ذلك اليوم فترة .. فكان وقع خطانا ، وبكاء أمى وهى تنقل خطاها الى جوارى على اتساق مع الطبيعة المكتئبة ، فأحسست كأن يدا باردة تعصر قلبى بين جنبى حتى لتكاد تستل روحي .. لقد كنا على أبواب من داخلها العذاب الاليم .. ولكن لم يكن لنا بد من الدخول ، فدخلنا ..

في الليلة الظلماء

وما كان لنا حين نزلنا في دار « أنا فيودروفنا » إلا أن نحس
الوحشة لتبدل الالف وتحول الحال ..
وكان بيتها عبارة عن خمس حجرات ، تعيش في ثلاث منها
« أنا فيودروفنا » وابنة عمتي ساشا ، وساشا فتاة يتيمة
لطيفة ، مات عنها أبواها فتكفلت بها « أنا » . فأقمنا نحن في الحجرة
الرابعة . أما الحجرة الأخيرة - وهي التي تجاور حجرتنا -
فيكتريها من « أنا » طالب علم شاب رقيق الحال اسمه
« بوكروفسكى » ..

والحق أن « أنا » كانت تعيش في بحبوحه لم تكن من قبل
نحسبها تنعم بها ، وإن كان مورد معاشها ما يزال حتى ذلك الوقت
سرا من الاسرار . فهي لا تنى عن الحركة والخروج بضع مرات
كل يوم ، وتستقل العربيه كلما خرجت . وإذا لم تخرج ظل
الضيوف يتدفقون على بابها في زيارات خاطفة قد لا يزيد بعضها
على دقائق معدودات تقضيها في التهامس مع زائرها بنجوة عن
الأذان .. وكانت أمي تحرص على الذهاب بي الى حجرتنا
الخاصة كلما رن جرس الباب . فيبدو من ذلك امتعاض على وجه
« أنا » ، لأنها كانت تحب أن يراها الناس في ركابها لتزهو
باحسانها اليها .. وحفزها هذا الترفع منا الى مخاشنتنا ...
فهي تزهو علينا وتمتن ، وإذا جلسنا للطعام جعلت تحصى
علينا بنظراتها القاسية اللقيمات التي تطاوعنا أفواهنا على التقامها
فاذا ثارت كبرياؤنا يوما ولم تواتنا الشهوة للطعام ، ثار ثأرها
وعزت ذلك الى ترفعنا عن الطعام لتواضعه ، وما به من تواضع ..
وانما هو شعورنا بالضعفة والهوان .

وكم من مرة نبشت قبر أبي بلسانها السليط ، مطمئنة الى

~~~~~ في الليلة الظلماء ~~~~~

أنا لا نملك لعدوانها دفعا . فالدمع متنفسنا الوحيد من ذلك الضيق الجاثم على صدرينا .

ولم نجد لنا مخرجا من ذلك الضنك الا العمل ، فأخذنا نتنقل بين البيوت للحياكة فيها ، مع مافي ذلك من ارهاق لامى التى يزداد هزالها يوما بعد يوم لعلنا ندخر شيئا يكفل لنا الاستقلال بمعيشتنا بعيدا عن «آنا» وبيتها المنكود . . فأتى هذا العمل المضنى على البقية الباقية من عافية والدتى ، وباتت تهوى الى قضائها بين سمعى وبصرى ، فلا أستطيع لها شيئا . . وماذا تستطيع عاجزة فقيرة أمام سطوة الجوع والمرض ؟

ومضت الايام أشباها في قتامها وملالتها وثقل خطاها . ومن أين يأتينا الشعور بالتغير ؟ لقد كنا نعيش بمعزل عن الدنيا قاطبة ، فكأننا لسنا من أهل المدينة التى تموج بالناس وتضطرب بالاحداث . بل اننا صرنا أقرب الى اعتزال « آنا فيودورفنا » لأنها طامنت من غلوائها لما رأتنا خاضعتين لها لا نفكر فى دفع الاذى عنا أو مناقشتها فيما ترمينا به أو تنوش به ذكرى أبى . وكان يفصل حجرتنا عن حجراتها الثلاث دهليز صغير ، فكأننا فى جناح مستقل لا يشتركنا فيه الا الطالب الفقير « بوكروفسكى » .

وكان « بوكروفسكى » يلقن ابنة عمتى « ساشا » دروسا فى اللغة الفرنسية واللغة الالمانية والتاريخ والجغرافية وسائر العلوم فى مقابل المسكن والمأكل ، لانه لا يملك موردا للعيش الا تلك المهنة الشاقة .

واقول انها مهنة شاقة ، لان « ساشا » التى لا تعدو

الثالثة عشرة من عمرها شيطانة خبيثة لا تفرغ لها فنون من
العبث والمناورة ..

وقد ألمعت « آنا فيودروفنا ، لأمى اننى أحسن صنعا لو أفدت
من هذه الدروس المجانية ، مادام موت أبى قد حال دون اتمام
دراستى ، فرحبت والدتى بهذه الفكرة ، وكذلك بدأت حقبة
دراسية تعلمت فيها على يد « بوكروفسكى » وزاملت فيها
ساشا مدى عام كامل ..

وقد كشفت لى هذه الدروس عن حقيقة معلمى ، فاذا هو مثلنا
فقير معدم .. واذا المرض والفقر قد اجتمعا على بنيته الضعيفة،
فلا يتاح له المواظبة على حضور دروسه فى الجامعة .. حتى بات
نعتة بالطالب أثرا من آثار العادة لا تقريرا من تقارير الواقع .
ولم أر فى حياتى شخصا فى مثل هدوئه وحيائه الشديد .
ولعل مرد هذا الى خزيه من فاقتة وزراية مظهره .. فكان هذا
الارتباك الذى لا يفارقه فى كلام أو مشية أو تحية يثير ضحكى
كلما رأيته ، فلا أستطيع مغالبة الضحك وان اجتهدت فى كتمان
طاقتى .. ولا سيما ان « ساشا » الحبيثة لا تكف عن تدبير المعابثات
والنكايات أثناء الدرس .

وزاد من استثارته للضحك والمعاينة انه كان سريع الغضب ،
يصرخ لأتفه اثارة ، وكثيرا ما كان يقطع الدرس وينصرف الى حجرته
غاضبا ونحن نضحك منه ملء شديقينا .

وأكثر وقته كان يقضيه فى حجرته منصرفا الى القراءة فى
كتبه الكثيرة . فكل ما كان يحصله من اعطاء الدروس الخاصة فى
بيوت الطلاب كان يشتري به ما يقع فى نفسه من الكتب بالغا
ما بلغ ثمنه ..

فلما انقضت فترة من الوقت تكشف لى هذا المظهر الخادع عن
حقيقة لا تشبهه الا مشابهة النقيض للنقيض : فاذا نفس نبيلة وقلب

في الليلة الظلماء

سرى ، واذا فتى هو أخلق الناس بالتقدير وأولاهم بالفضل والكرامة
فيمن عرفت طول حياتي ، فأضحى أصدق أصدقائي بعد أمي .
وقد تفتحت عيني على هذه الحقيقة بعد عماية حمقاء تخبطت
فيها مسوقة اليها بقدوة «ساشا» الرعناء : ففيما نحن نسخر منه
ذات يوم وقد أخذتنا نشوة المعابثة والحفة والتلذذ بمراي
هذا الفتى مغيظا ثائر الأعصاب ، ترقرق الدمع في عينيه من فرط
ما أشعره من القهر ، وقال في صوت يختلج فيه البكاء الحبيس ،
وكأنه يحدث نفسه :

- رباه ! ما أضرى الشر في نفسيكما أيتها الصغيرتان !
فكأنما نفذت كلماته الى شفاف قلبي ، فشعرت في تلك اللحظة
بفداحة جرمي ، وخجلت من نفسي خجلا شديدا . وقلت له في توسل
صادق والدمع يكاد يخنقي :

- هديء روعك ، ولا تغضب فما قصدنا ايذاء شعورك . فلا
تؤاخذنا بسفاهتنا وألق علينا بقية الدرس
ولكنه أبى ، وأقفل الكتاب ثم انصرف الى حجرته غاضبا ، فبقيت
سائر ذلك اليوم نهبا للندم والاسى ، لاننا أذللنا كبرياءه حتى
دفعناه الى البكاء دفعا .

ولم أذق في ليلتي تلك طعم النوم الى أن طلع الصباح . فما أذكر
ليلة أشأم من تلك الليلة فيما مر بي . .
وانى لأعجب ممن يزعم ان الندم يغسل الحوبة ويسرى عن النفس
ما تجده من تأثم ، ويرفع الحرج عنها . . فما وجدت شيئا من
ذلك حين تنفس الصبح عن ليلتي الليلاء . . ولعل شيئا من العزة
قد خالط ندمي . فقد آذنى أن يراني طفلة مثل ساشا وأنا في
الخامسة عشرة من عمري .
ومنذ ذلك اليوم صار شغلي الشاغل تبديل تلك النظرة ،
والعلو بمكانتي واعتباري عن ذلك الدرك الذي ترديت فيه بعثى
السخيف . .

صورة آيب

وأراني مسوقة في هذا الموضع من مذكراتي الى الكلام عن أعجب من رأيت من الناس وأدعاهم الى السخرية والاشفاق في آن واحد .
واذا كنت لم أجرب قبل هذه الساعة له ذكرا ، فما ذلك الا لانني لم أتنبه لوجوده من قبل . . أما وقد بات يعنيني بين عشية وضحاها كل أمر له بأستاذي « بوكروفسكي » صلة ، فذلك الشيخ الغريب الاطوار أهل لدى لكل رعاية واهتمام . .

فقد كان يلم بيتنا بين الحين والحين شيخ قصير القامة، زري الملبس ، أشيب اللحية ، ضاو، متخبط الحركات . . فهو معجز في غرابة شخصية وشدوذ هيئته . فالذي يقع في النفس لأول وهلة انه امرؤ رازح تحت وفر من الحزى ، فهو ضيق الصدر بنفسه التي بين جنبيه يتمنى لو واراها عن الناس ! انه يمشي متسللا لاثدا بالجدران كي يوارى من شخصه ما استطاع . ولكن حركات وجهه واشاراته الشاذة كانت تلفت اليه الانظار ، وتوقع في الاذهان انه انسان مسلوب العقل .

وكان هذا الشيخ اذا جاء الى بيتنا لا يجسر على الدخول من الباب الزجاجي ، بل يبقى في الدهليز الخارجي محاذرا أن يندعنه صوت ، فاذا اتفق مروري به أو مرور ساشا أو أحد الخدم ممن يأنس فيهم الميل اليه ، حيا بحنى رأسه دون أن يتكلم ، وأشار بيده اشارات تدل على الرغبة في الدخول مع التوجس من وجود الغرباء . . فاذا أشير اليه أن ليس ثمة غريب بالدار وانه لا مانع من دخوله ، أقدم على اجتياز «العقبة» وقد سرت في وجهه علائم البشر والحبور ، واتجه من فوره الى حجرة « بوكروفسكي » لا يلوى على شيء . . فذلك الشيخ أبوه . . وقد عرفت بعد ذلك دقائق تاريخ هذا الشيخ المسكين . فقد كان موظفا في ديوان من دواوين

الدولة ، ولكن افتقاره الى الذكاء واللباقة والحزم قعد به عن الرقي ، فبقى حيث بدأ حاملا مغمورا . ولما ماتت امرأته الاولى - والده بوكروفسكى - سولت له نفسه أن يتزوج من فتاة تنتمى الى الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى ، فكانت هذه الزوجة الجديدة فاتحة عهد جديد من الارتباك الشامل والازمات الشداد تتوالى وتتزاحم على منكبى الزوج الضيق العقل المطموس البصيرة والشخصية . فهي امرأة مستبدة ، شكسة ، سليطة اللسان جموح .

وكان بوكروفسكى يوم بنى بها أبوه طفلا لا يعدو العاشرة من عمره ، فسامت هذه المرأة القاسية سوء العذاب ، حتى أخذت الشفقة به سيدا من سراة التجار طالما شمل بوكروفسكى الاب بعطفه فأولى الغلام اليتيم الام رعايته ، وأدخله القسم الداخلى فى احدى المدارس على نفقته الخاصة . واسم ذلك السيد الاريحى الكريم « بيكوف » : وسر عطفه على الغلام أن بيكوف قريب « أنا فيودر وفنا » التى ربت أم بوكروفسكى فتاة الى أن زوجتها وكانت بائنتها خمسة آلاف روبل ، خرج عنها السيد بيكوف من حر ماله صدقة خالصة ..

ولست أدري ما صنع الدهر بهذه الآلاف الخمسة من الروبلات ، فمبلغ علمى عن هذا الموضوع ما صرحت لى به « أنا فيودر وفنا » أما « بوكروفسكى » نفسه فلم يكن يحب الخوض فى حديث أسرته وماضيها .. واذا صدق ما بلغنى عن جمال أم « بوكروفسكى » الباهر ، فما أعجب اقدمها على الزواج - فى بكرة صباها القصير - من رجل فيه من البلاهة والقماء ما فيه .. على فقر وكهولة .. وان لم يكن عجيبا أن تسوء صحتها بذلك الزواج ، فتموت فى ابان شبابها قبل الاوان .

.. وواصل بوكروفسكى دراسته موقفا فيها أن دخل

الجامعة ، وكان السيد «بيكوف» يحضر الى بطرسبورج بين الحين والحين فيشمله برعايته ويزوده بما يلزمه من المال . . حتى اذا عاقته صحته عن مواصلة الدرس في الجامعة ، قدمه الى « أنا فيودروفنا » وأوصاها به خيرا ، فأنزله في بيتها وكفلت له فيه المأوى والمأكل مقابل تعليم الحبيثة « ساشا »
أما والده الشيخ فزادت حاله سوءا ، وأفضى به الحزن والهم لما تصبه زوجه على رأسه من جام العذاب الى ادمان الخمر ، حتى بات لا يفيق . . كأنما قد كان ينقصه هذا الداء الوبيل ليضيف الى نقائصه نقصا جديدا . .

فلما أدمن الشراب زادت امرأته نكالا ، وصارت تضربه ولا تسمح له بالنوم الا في المطبخ ! حتى أصبح الضرب عنده صنو الخمر ، يتقبله منها دون مقاومة ودون استياء !
وقد عجلت هذه الارزاء بشيخوخته ، فهو أصغر بحساب الايام والسنوات مما يبدو للناظرين ، ولكنها آفاته الشداد ، أسلمته الى الهرم وبلغت به أعتاب الجنون ، وأخذت تدق له بابه دقا عنيفا فهو أشبه الناس بالدواب والبهم ، لولا عاطفة انسانية واحدة تسمو به عن ذلك الدرك ، هي حبه لولده « بوكروفسكى » حبا لاحد له . .

ويقال ان « بوكروفسكى » يشبه أمه شيها غريبا ، فلعل ذكرى تلك الزوجة المفقودة هي التي تلهب مشاعر الرجل المفجوع بها مرتين : مرة لفقدائها ، ومرة لما أصيب به حين استبدل الذي هو أدنى بالذى هو خير . .

ومهما يكن من شيء ، فالذى لا شك فيه ان الشيخ كان مولعا بولده ، فلا حديث له الا عنه . . ولا ينقضى اسبوع دون ان يأتى بزيارته مرتين . واجسبه ثم يكن يزيده عليهما لانه كان يعلم ان ولده لا يرتاح الى وجوده معه . وأظن ازدراء الفتى لأبيه كان

أبرز أخطائه ونقائصه طرا . . بيد ان الانصاف يقتضينا ان نقرر الواقع : فالشيخ كثيرا ما يستنفد ببذواته وسماحته صبر كل صبور ، وما اكثر ما يصرف ولده عن عمله او يقطع عليه حبل قراءته بحديث لا ترابط بين حلقاته واسئلة لامعنى لها ولا طائل تحتها . . . يضاف الى ذلك كله انه قد يأتى لزيارته مخمورا .
وقد حاول الشاب ان يثنى والده الشيخ عن عاداته الوبيلة ، وان يصرفه عن الفضول والثرثرة . . حتى افلح فى حمله على التزام الصمت التزاما تاما ، فلا يفتح فمه الا حين يأذن له فى الكلام .

وما كان هذا الاقلاع عن عادات طال عليها الامد ، واتصلت جذورها العميقة بنقصه النفسانى المزمى ، ممكنا لولا سلطان الولد على أبيه . فالشيخ معجب بأبنه أشد الاعجاب ، وهو عنده مثل أعلى أو قبس خارق من عالم الارباب . . . فلا يدخل عليه الا متطامنا متضائلا كالمستغفر . وبعد تردد طويل فى الدخول ، فاذا لقينى فى الدهليز استوقفنى ليسألنى عن احوال ولده سؤالا فى أثر سؤال ، حتى لقد يطول بنا ذلك الحديث ، او التحقيق ، ربع الساعة او عشرين دقيقة . تدور كلها حول حالة الفتى الصحية ، وما يشغله فى هذا الاوان ، أهو الكتابة أو التفكير فى موضوع فلسفى ؟ وهل مزاجه معتدل ؟ حتى اذا طمأننته وشجعته استخار الله فى الدخول . . فيفتح باب الحجرة ويطل منه برأسه . فاذا مارأى من ابنه بشاشة الانس والترحيب ولج الباب على أطراف اصابعه ، ثم خلع معطفه البالى وقبعته التى انتشرت فيها الثقوب وكاد البلى يفصل سقفها عن جوانبها ، مخافتا من حركاته كمن يخشى ان يوقظ نائما خفيف الجفن ، ثم اتخذ لنفسه مجلسا يكمن فيه مثبتا نظراته فى ولده ، حتى لاتفوته شاردة ولا واردة من حركاته وقسماته وكلماته . فاذا

لمح فيه ما ينم على الانقباض والازورار نهض من مقعده منصرفا متعللا بأنه لم يكن يريد الزيارة، وانما قد عن له ان يمر بأبنة في طريقه مرور استطلاع ، وكما يستريح برهة قصيرة لان الموضع الذي يقصده بعيد الشقة ٠٠٠ ثم يتناول قبعته ومعطفه ويخرج كما دخل في هدوء ، وعلى شفثيه ابتسامة يصطنعها ليخفى عن ولده ماشاع في نفسه من الاسى

أما اذا أحسن الفتى استقبال ابيه وهش له ، فما تكاد تتسع له الدنيا من شدة الفرح ٠٠ فللسرور في مقلتيه فيض من اللألا لا يعهد في نظرتهما الكابية وللبهجة في حركاته خفة واتساق ٠٠ فاذا ما وجه اليه ابنه الكلام تحفز للنهوض من مجلسه واجابه في نشاط متمزج به الرقة والتواضع والاكبار الذي يكاد يدخل في باب العبادة والتقديس فيتخير الفاظه تخيرا يشق عليه فلا يستطيع استعملها في مواضعها على وجهها الصحيح ، فتخرج العبارات من فمه آية في الفكاهة والطرب ، وما قصد الى فكاهه أو طرب ٠٠٠ وتستبد به الحيرة حينئذ ، فلا يفتأ ينقل يديه لا يدرى أين يخبئهما ، فعل الجانى المتلبس بجريمة يثقل عليه وزرها ٠ ثم ينتهى به الامر الى اللعثة والهمس ، ويتصبب وجهه عرقا ، خزيا مما انتهى اليه أمره « بين يدي « معبوده ٠٠ أما اذا اتفق له جواب لائق أو عبارة سائغة ، فما أسعده بهذا التوفيق الذي يملى له في الاستطراد ، فلا يحار اين يخفى يديه ، وانما هو يسوى بهما رباط عنقه ، ثم يثبتهما في جيبى صدره مزهوا بنفسه ٠٠!

وقد يتمادى في هذه الاحوال في الثقة بنفسه ، فيتجاسر على الوقوف والتمشى في الحجرة ، ويمد يده الى كتاب من كتب ابنه فيقلب صفحاته متكلفا الهدوء والاطمئنان ، كأن بشاشة ولده هي القاعدة المألوفة ، وكأن انطلاقه على سجيته في حجرة ولده عادة له جارية ٠٠

ولكنى شهدت مبلغ ذعر الشيخ وقد نهاه ابنه ذات يوم عن لمس كتبه وأوراقه ، فبادر الى وضع الكتاب الذى كان بيده فى مكانه ، فوضعه لاضطرابه مقلوبا ، فتناوله مرة اخرى كى يصحح وضعه ، فاذا به يضعه فى هذه المرة وفتحته الى الخارج! فأخجله هذا الخطأ الجديد ، واحمر وجهه احمرارا شديدا ، وحارفى نفسه كيف يخفى جريمته ..

فبهذا السلطان استطاع « بوكروفسكى » الشاب ان يقوم من اعوجاج ابيه الشيخ ، وكان اذا رآه ثلاث مرات تباعا صاحى الفؤاد غير ثمل اعطاه نصف روبل او اشترى له حذاء او رباط عنق او صدارا ..

وما كان اعظم فرح الشيخ بهذه العطايا ، التى يتيه بها مزهوا ، وقد يدخل حجرتنا ليرينا اياها ، حاملا الينا شيئا من الحلوى او التفاح مما افاء عليه ابنه ثمنه ... وليتحدث الينا عن مزايا ابنه ماشاء له الله أن يتحدث

وكانت أمى - رحمها الله - تحب الشيخ وتعطف عليه كثيرا فكان الشيخ يأنس اليها .. أما « أنا فيودروفنا » فكان - لو أطاق - يولى منها فرارا وقد امتلأ منها رعبا ، لولا انه يخشى نقيمتها وغضبها ، فيظل بمحضرها ما أذنت له فى البقاء صامتا مطرقا ..

سِرَج الخفاء

لم تطاوعنى نفسى على متابعة الدرس على يد بوكروفسكى، فقد
تحليت امامه بالرزانة والعقل، وحملت « ساشا » على الاقلاع
عن ألاعيبها ومعايشتها حتى بات استاذنا الشاب ناعم البال لا يعكر
صفوه منا معكر، ولكنه ما فتى ينظر الى نظره الى طفلة لـم
تبلغ الحلم، وكل ما طرأ عليها من تغير انها كانت طفلة عابثة
لاغية، فأضحت طفلة هادئة رزانا وهى فى حالها ما تزال طفلة .
ولم تجد معه محاولاتى الكثيرة فى لفت نظره الى ما امتاز
به على « ساشا » من صبا وسن تسلكنى فى عداد الشبابات
الوانس .

ولكن هذه المحاولات لم يكن أمامها متسع غير ساعات الدرس
فما كنت اجد فى نفسى جرأة على خطابه فى غير تلك الساعات،
فما ألمحه فى البيت رائحا أو جائيا حتى يحمر وجهى ويجف حلقى
فيلتصق به لسانى وتبرد اطرافى فلا أنبس ببنت شفه . فاذا فاتت
فرصة السلام او الكلام اسرعت الى ركن قصى أنتبذه لأبكى فيه
خيبتى وسوء حالى . .

ولست أدري حتام كان هذا الحال قميناً ان يدوم، لو لم
تسنع فرصة من سوانح العناية فتكشف ما كان بيننا من حجب،
وتقرب بين قلبينا على غير انتظار

فقد كانت امى ذات ليلة فى حجرة « أنا فيودروفنا » لشأن لها
أو لسمر، ولم يكن بوكروفسكى فى البيت، فدخلت الى حجرته
متلصصة على اطراف اصابعى، وقد استولت على رغبة قاهرة
لا عقل لها ان استطلع خفاياها بنجوة من الرقباء . فقد كان
يلقى علينا الدروس فى حجرة ساشا، ولم اكن قد دخلت حجرته
الخاصة على تقادم العهد على جيرتنا نيفا وسنة . .

برح الخفاء !

وما دخلت من الباب حتى الفيت قلبي يدق داخل ضلوعي
دقا عنيفا متداركا حتى لقد خشيت ان ينفطر او ينشق ..
ولكن ذلك الوجيب لم يصرفني عن التطلع في فضول شديد الى
كل ماحولي ، فاذا اثاث متواضع جدا ، تزيد الفوضى الضاربة عليه
من حقارته وضعته : فعلى المقاعد والمائدة اوراق مبعثرة ، وعلى
الارض اوراق اخرى وكتب واذياير . فقفز الى خاطري
شعور جد اليم غمر وجداني في تياره الطاغى : فقد قر في نفسي
ان هذا الفتى لا يمكن ان يرى في صداقتي وحبى مقنعا له وغنى عن
كل حب وصداقة ، فهو عالم واسع العلم والثقافة ، بعيد مرمى الفكر
والقريحة ، وانا فتاة جاهلة اوفى حكم الجاهلة ، لا يكاد ماقرأته
يستحق الذكر ، فما أذكر اننى قرأت كتابا برمته من الدفة الى
الدفة ..

ووقفت وسط هذا الطوفان من الكتب أنقل بينه بصرى ،
وأرمى بنظرات الحسد رفوف المكتبة التى تكاد تنوء بما تحمله
من الاسفار الثقالة . . ورأيت نفسى وقد تقسمها الاسى ، والحسرة
والغضب الجائح الذى يحفزنى الى العمل ، اى عمل يخرج بى
عن هذا الموقف الاليم .
وكان اول ما عن لى ان اقرأ هذه الكتب جميعا ، من اول كتاب فيها
الى آخر كتاب ، لا اترك منها شيئا ولا افترط فى شيء ، فى غير
وناء ولا ترفق . . فلعلنى اذا انا فرغت من قراءة كل ماقرأ ، أكون
كفئا لحيه وصداقته ..

وهجمت على أول رف من رفوف المكتبة ، فتناولت اول كتاب
فيه دون تدقيق او رغبة فى التحرى والانتقاء ، فاذا سفر
قديم اصفرت اوراقه وعلاه الغبار فحملته مضرجة الوجنتين خافقة
القلب واجفة وانطلقت به الى حجرتنا وانا احسب اننى قد

برح الخفاء !

وقعت على كنوز قارون ، وفي مرجوى ان اقرأه على ضوء «الذبالة الساهرة» اذا ماسجا الليل ونامت عين والدتي .
وفتحت الكتاب في حجرتنا قبل ان اضعه في الدولاب ، فاذا شيء خاب له رجائي العظيم : فما كان ذلك الكتاب الا مجموعة نصوص لاتينية لا افقه منها شيئا ، فأسرعت به الى حجرة بوكروفسكى قبل فوات الاوان . وما هممت بوضع الكتاب حيث كان حتى سمعت في الردهة وقع اقدام الشاب عائدا الى حجرته .
وكانت الكتب الاخرى قد احتلت مكان الكتاب الذي اخرجته من بينها ، فأسرعت في افساح مكان له والخوف يهزني هذا شديدا من أن يفاجئني بوكروفسكى متلبسة بالجريمة الدامية ، فاذا بالمسمار الذي يمسك الرف الى الجدار يتداعى ، كأنه كان ينتظر هزة يدي انا الشقية حتى ينوء بما كان يحمله زمانا طويلا دون كلال فوق الرف وتناثرت الكتب على الارض . . فلو ان قبلة انفجرت بين قدمي لما كان لها أهول من وقع هذه الاسفار وضجتها المكتومة .

وفي هذه اللحظة انفتح الباب وبرز منه بوكروفسكى . . . وكنت اعلم مبلغ حرص الشاب على كتبه ، فالويل لكل من تحدثه نفسه أن يمسها بخير او بشر . فناهيك اذن بما استولى على من الفزع في تلك اللحظة ، وقد تناثرت كل تلك الكتب ، فأخذت تتراقص تحت المائدة والمقاعد ، وفيها العماليق والاقزام ، والاشياخ والاطفال والسمان والعجاف . . .

لقد وودت أن اولى الادبار فرارا من هذا الموقف الشديد ، ولكن أين المفر ؟ لات حين فرار ! وحدثتني نفسي ان هذه الفعلة حرية ان تثبت في ذهن الشاب ظنسه بى ، اننى لست الا طفلة لاغية لاهية ، تعبت بكل شيء متى أمنت عين الرقيب ، فهى قاصرة القفل خاسرة مفسدة !

~~~~~ برح الخفاء ! ~~~~~

وقد صبح ما توقعت : فما ان مضت لحظة صمت كأنها الدهر
أو ساعة من يوم الحشر ، حتى انفجر مرجل غضبه وانشأ يعنفني
ثم انحنى على الارض ليجمع ما انتثر من كنزه الثمين ، فانحنيت مثله
أجمعها ، فصاح بى فى هياج شديد :
- اليك عنها . . . فلا تتعبى نفسك فيما لا ينبغى لك . وكان
خييرا لك قبل هذا الا تدخل مكانا لم تؤذنى فى دخوله ولم يدعك
الى دخوله صاحبه !

فلما رأى خجلي وصمتى وتأثمتى خفت حدة غضبه ، واستطرد
بعد حين فى لهجة أقل حدة وعنفا :
- أما آن لك ان ترعوى ؟ اما آن لك ان ترشدى وتتجنبى
أفاعيل الصغار ؟ ألم تحسى انك قد عدوت طور الطفولة ، فأنت
الآن فى الخامسة عشرة يافتاة ؟

وكأنما أراد ان يستوثق من صوابه حين قال انى بلغت
الخامسة عشرة ، فرجع بصره فى قامتى علوا وسفلا ، فاذا تلك
النظرة تسكب فى وجهه وأذنيه طوفانا من دم الخجل والحياء !

ولم ادر لاول وهلة ماذا اصابه من هذه النظرة التى تفحصنى
بها وانا واقفة امامه فاغرة الفم أحملق فيه فى دهش وارتباك
مما فعلت ، فاذا به ينهض ويتقدم نحوى - ولا تزال حمرة الخجل
تطل من أديم وجهه - فيتمتم ويبرجم كلاما لم افقه منه شيئا ،
لعله يكون اعتذارا عن حدته او عن غفلته عن نماء عودى
واستواء قدى حتى ذلك الاوان . ولكن نور الحقيقة غمر سريرتى
على حين غرة فوعيت مالم أع من قبل ، واحمر وجهى بأشد مما
احمر به وجهه ، حتى أطاش الحياء والخفر ما كان لى من جأش وبديهة
فغطيت وجهى بيسدى وانطلقت أعدو هاربة الى غرفتى . . هاربة
منه ، ومن نفسى ، لو ان الى الفرار من نفسى سبيلا . . .

بارقة رجاء

رباه أين أخفى عنه وجهي وأستر عن عيني عاري ؟ لقد
وجدني - أنا الآنسة الناضجة الصبا - في حجرته، وهو الشاب
العزب وتلك لعمرى كبيرة الكبر ...

... ومضت ثلاثة ايام لم أخرج فيها من غرفتي ، حتى
لا يراني بوكروفسكي ، وكنت اذا سمعت خطوه خارجا او داخلا
غامت بالدمع عيناى لفرط ما يندفع الى وجهي من الدم الدافق الحار
ثم اخذت تراودني افكار اتأملها الان فأجدها غريبة سخيصة
مضحكة ، ولكنها كانت وهى مستولية على تبدو لي وجيهة واجبة
الاداء ... فقد هممت مثلا اكثر من مرة ان أتوجه الى غرفته
لاشرح له حقيقة دوافعي لزيارة غرفته أثناء غيابه ، فلا يذهب
به الظن الى ما لم يكن من همى ولا خطر لي على بال ، فأى محنة
لوجداني أن يحسبني طفلة تعبث بما ليس لها أن تمد يدها اليه ،
أنا التى ما أقدمت على هذه الفعلة الاطمعا فى الارتفاع بمكانتي
عنده ..

وددت لو عرف الحقيقة حتى اكبر فى عيني . ولكن شجاعتي
خانتني وقعدت بي عن تحقيق ماراودتني عليه نفسى .. الى أن
مرضت والدتي بعد بضعة ايام مرضا شديدا ألزمها فراشها
يومين . فلما كانت الليلة الثالثة غشيتها الحمى حتى اسلمتها
الى الهذيان . وكنت قد سهرت الى جوار فراشها الليلة السابقة
فلم يغمض لي جفن ، حرصا منى على خدمتها وقضاء حوائجها واعطائها
الدواء فى أوانه الموقوت ، فلم أستطع فى هذه الليلة مقاومة
النعاس ، ولم تطاوعني نفسى على الاستسلام له ، فبقيت على مقعدى
يتقاذفني الوسن واليقظة ، ويكاد اعياى الشديد ينتهى
بى الى الاغماء ... فما اغفو برهة حتى يوقظني انين امي

بارقة رجاء

المدنفة ، فأهب من نومي فزعة وافتح اجفاني الثقال لحظة ، ثم يغلبني التعب والكرى فاقفلها واغوص في غيبوبة مالها من قرار .

وطالت نوبة نعاسي آخر الامر ورأيت فيما يرى النائم حلما اقض نومي ، فانتبهت مذعورة مبهورة الانفاس ، فاذا ذبالة المصباح تجود بانفاسها الاخيرة ، وقد خيمت الظلمة على الغرفة ، فخيّل الى انها امتداد محسوس لحلمي الفطيع ، فقفزت من مكاني واطلقت صرخة ندت عني دون أن أعى . . . فاذا بابنا يفتح في تلك اللحظة ، واذا « بوكروفسكي » يدخل منه .

ولست اذكر الان من تلك الليلة الا انه كان يسندني بذراعه عندما استيقظت من غشيتي وثبت الى نفسي ، فأجلسني في رقة وعناية وقدم لي قدحا من الماء ، ثم اخذ يمطرني وابلا من الاسئلة . ولا ادري بم اجبته ، فانه تناول يدي في يديه وقال لي : - اراك مريضة ، مريضة جدا ، فحرارتك مرتفعة . . . واحسبك تنزلين بصحتك ضررا محققا بما ترهقين به نفسك من خدمة والدتك وتمريضها . فارقدي الان واستسلمي للنوم ، وسأوقظك بعد ساعتين .

قلما هممت بالاعتراض ، قال في الحاح المترفق : - لا تتكلمي . استريحى وهدئي من ثائرة اعصابك المتوترة قليلا . فهذا ألزم ما ينبغي لك الان .

وكان الاعياء قد استنفد مقاومتي ، فما سمعت كلماته تلك حتى اقفلت اجفاني ونمت مضطجعة في مقعدي ، وفي عزمي ان استيقظ بعد ساعة او أقل من ساعة . . ولكني نمت حتى الصباح ! فلم يوقظني بوكروفسكي الذي سهر على أمي تلك الليلة الا حين آن أن أسقيها جرعة الدواء . .

بارقة رجاء

وأصبت فى ذلك النهار قسطاً من الراحة ، ليسعنى أن أسهر
فى الليلة التالية على والدتى مصممة على مقاومة الوسن حتى
مطلع النهار . ولكن ما سـجـا الليل حتى طرق بوكروفسكى
باب غرفتنا ، وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ، ففتحت
الباب ، فإذا به يقول لى فى لطف ورفق :

— لقد خطر لى أنك قد تسأمين الوحدة فى سهرتك ،
فأتيتك برفيق أنيس ، هو هذا الكتاب

فتناولت الكتاب من يده وانصرف ، ولست اذكر ماذا كان
عنوان هذا الكتاب ، ولا احسبني فتحتة ، وإن كنت قد قضيت
ليلتى تلك ساهرة لم اذق طعم الكرى ، فقد كان ضميرى مسرحاً
لشعور غامض ولكنه جياش ذادعنى الوسن وأبقى وعيى مركزاً فى
بؤره مشاعرى المضطربة الامواج

بيد أن ذلك الاضطراب الذى سـهـدنى كان من العنف
بحيث أقضى مجلسى ، فلم أستطع التلبث فى معقدى على استقرار ،
فما اكثرت ما قمت اتمشى فى الحجرة على اطراف اصابعى .
ولكن حاشا ان يشتبه هذا القلق بما يورثه الحزن والهم من
اضطراب وأسى . . . كلا ! فقلقى تلك الليلة قلق جلو ، مرده الى
فيض السعادة التى امتلأت بها جوانحى حتى ضاقت عنها ، فراحت
تنشد لطاقتها الفائضة مخرجاً فى الحركة ، ولولا مرض امى
لتلمست متنفساً لها فى الغناء . فقد سرنى اهتمام بوكروفسكى
بشأنى ولمست قلبى « لفتة » حتى ملأتنى زهواً ، وفتحت لى
باب الاحلام الذهبية فرحت اعب منها تلك الليلة ما وسع خيالى
الخصيب ان يسعف روحى الظمأى بالاكواب المترعة بعد الاكواب من
نـبـع تلك الاحلام ورحيقها المصفى

وقد صمد خيالى لظماً روحى ، فظل ساهراً معها يسقيها كؤوس

الاحلام حتى مطلع النهار . فلم يطرق بوكروفسكى الباب طول الليل سائلا او متعللا بالسؤال وكنت اعلم انه لن يفعل ، ولكنى كنت سعيدة ، وكنت راضية بالانتظار الى المساء التالى ، واثقة انه سيعود حينئذ الى السؤال والعطف

. . . . وجاء المساء التالى ، ووقف بوكروفسكى بباب غرفته يعالج فتحه بمفتاحه ، وكان باب حجرتى مفتوحا فحيانى وسألنى عن حال امى وعن حالى . ولست اذكر عبارة واحدة مما تبادلنا من الحديث ليلتئذ ، فقد كان الحياء يفتت اعصابى ويمزق اوصالى ويشل وعيى . . . حتى لقد استعجلت نهاية هذا الحديث الذى بت ليلتى وقضيت سحابة نهارى احلم بدنو ساعته !
أهذا هو الحب ؟ ماذا فيه اذن مما تصرخ اعماق النفس فى طلبه وتشهيه ؟

كلا ! انه ليس حلو المذاق ، وليس كالشهد المصفى ، ولكنه مع هذا منية القلب وطلب الروح
وليس من دليل على هذا اكبر من ان تلك الليلة بالذات كانت بداية صداقتنا الصريحة الصافية ، فكان عينا وضيقنا واضطرابنا فى الكلام بمثابة اوجاع المخاض التى ولدت تلك الصداقة الجميلة الطاهرة وبتنا نقضى كل ليلة من ليالى مرض والدتى الطويل بضغع ساعات فى صحبة ناعمة الى جوار فراشها

وتكفلت الليالى المتعاقبة بالقضاء على فيض حيائى ، ومهدت أمام عقلى الطريق الى رباطة الجأش والسلوك المتزن وان كنت قد بقيت على ما اعهدته فى نفسى من الشعور بالتخلف عن السمات اللائق .

وقد أثلج صدرى ان اراه يهمل كتبه المعبودة لديه فى سبيل

بارقة رجاء

الجلوس الى والعناية بأمرى وامرامى من اجلى . . . فتفتحت نفسى
لصداقته وزادت ثقتى بها .

وفى ذات يوم جرنا الحديث الى حادث المكتبة التى عبثت بها
فى حجرته حتى وقعت الكتب على ارضها ، فاذا بموجة من الصراحة
تجرفنى فى تيارها ، فأصارحه بالحقيقة كاملة ، ولا اكتمه ان
دافعى الى ذلك العمل هو رغبتى الملحة فى تثقيف عقلى حتى تتغير
نظرتى الى فأعدو عنده طور الطفولة الى مرحلة انداده من الشباب .
واثها لجراءة منى لا ادرى كيف واقتنى ، ولكن صداقتنا
كانت من الصفاء بحيث تقتلع الحواجز والاستار ولا تبالي
القيود والتقاليد والمواضعات . . فاعترفت له بالحقيقة والدموع
تتألا فى عينى . . . وصارحته بما كان يعتلج فى اعماقى من
رغبة قوية فى كسب مودته ، بل فى حبه ومزج حياتى بحياته .
وكان بوكروفسكى يصغى لى وهو مبهور ، فلم ينطق بكلمة ،
حتى خيل الى انه لم يفقه ماقلت له . او انه يسخر منى فى طوايا
سريرته . . . فسرت فى نفسى موجة من الكآبة غاتية ، وطفرت
الدمع من عينى ، ثم اجهشت باكية ، كما يبكى الاطفال فى غير
احتجاز . . ثم انقلب البكاء الى نشيج يتفرز منه جسدى كله
وتختلج به جوارحى ، فتناول راحتى بين راحتيه ، ووضعها
فوق صدره ، ثم غمرها بقبلاته فى رقة وحنان ، وجعل يناجيني
فى صوت هادىء عطوف .

ولست اذكر الان ماذا قال لى حينذاك ، ولكنى اذكر تمام الذكر
اننى جعلت أبكى وأضحك وأنا اسمعه طورا بعد طور ، وان
الحمرة والاكفهرار كانا يختلفان على وجهى . . وان الحرارة
والبرودة كانتا تصطرعان فى اطرافى ، وان الكلمات هربت
من فمى حتى لقد شككت فى وجود لسانى . . .

بارقة رجاء

وهذا من روعى وسكن من طائرى ان بوكروفسكى جعل
يبادلنى ودا بود ، واتقاد عاطفة باتقاد عاطفة ، وانجاب عنه
الذهول لما فوجىء به من عاطفة لم يكن يتوقع لها وجودا فى
حنايا صدرى . فسرت حرارة النشوة الى كيانى ، وادفأت قلبى
المقرور ، وبت ناعمة بسعادة لم اذق من قبل لمثلها طعما . ولم
اكتمه مبلغ سعادتى بحبه وقربه فزادنى هذا الاعتراف من قلبه
قربى ، فتمت محبته لى على الايام ، بل على الساعات ، نماء
متصلا مطردا .

وما كانت احاديثنا فى تلك الليالى الحلوة شيئا مما يدون او
يذكر ، فهى سمر تافه الموضوع ولكن النور الذى كان يدفىء
قلبيننا كان يشرق على تلك الاحاديث فنحسبها وضـيئة
مشرقة البيان .

لقد كانت تلك الاحاديث جدولا رقيقا يتدفق من نفسينا فى غير
تعمل او تكلف . وفى ذلك التدفق الجميل الصافى سر عنوبتها
وشجائها ، وحسن جرسها وصداها ، وطيب عرفها وريائها
فهى اصدااء نفسين تتفتحان بعد طول احتباس ، وتشرقان بعد
ظلمة وطول تخبط والتماس . . وما زالت تلك الاحاديث التى
طوى عهدا الزمن الساطى نورالى - على ما تثيره من الالم عندى -
كلما حزبنى أمر وتكاثرت على الاحزان . .

*

... وتماثلت أُمى للشفاء ، ولكنى بقيت على عادة السهر
بجوار فراشها ، فكان بوكروفسكى يمدنى بالكتب اقرؤها فى سهرى
فكنت اقرؤها اول الامر ذودا للنوم عن اجفائى ، ثم صرت
أقرؤها تشوقا الى المعرفة وتلهفا على الاطلاع . . فقد فتحت أمامى
افاق جديدة لم اكن احس لها من قبل وجودا ، وبت ارى
وجدانى يزداد على الايام عمقا واتساعا وغنى .

بارقة رجاء

فلما برئت امي من علتهـا وغادرت فراشها ، انتهت ليالى
السهر والسمـر ، واصبحت فرصة الحديث أمامنا لا تسنح الا خلسا
قصارا لا تنقـع غلة ولا تشفى اوارا . . . وانما هو السلام
وما يلحق بالسلام من مبتذل الكلام . . . بيد انى كنت احس
لتلك العبارات العابرة طعما غير طعم سائر الكلام ، لان الفقر
فى زاد حينا الخارجى كان هينا علينا بما فى قلوبنا من زاد
لا ينفد ، وما فى نفسينا من غنى روحى وطمانينة لا تقوى عليها
زعازع الحرمان . . .

عيد الحبيب

... انقضت على هذا النسق جملة اسابيع ، ثم حضر بوكروفسكى الاب لزيارتنا ذات صباح ، واخذ يجاذبنا اطراف الحديث ، فى جذل وخفة رشيقة لم نعهدهما فيه من قبل ، فكانت لحديثه طلاوة فكهة اشاعت السرور فى نفسه ونفسينا ... ثم كشف لنا عن موضوع زيارته فاذا عيد ميلاد « بتينكا » (وهو اسم التدليل لبوكروفسكى) يحل بعد أسبوع ، وانه ينوى ان يزور ولده فى هذه المناسبة محتفلا بها فى هداياه وبزرة اكبر احتفال مستطاع ، فيرتدى صدارا جديدا ، وينتعل حذاء وعدته زوجته ان تشتريه له . وقد استخفته هذه الاحلام الساذجة حتى لم يعد يستطيع كتمانها فى صدره ، فجاء الينا لنشاركه فى نشوتها لما يعرفه من مكانة ولده لدينا ، انا وامى

ولم يدر بخلد الرجل انه احدث فى نفسى أثرا عظيما بهذا الخبر فلم يهدأ لى من بعده عيش لكثرة ما فكرت فى هدية اهديها اليه ، تذكره بصداقتى الراسخة العميقة الجذور فى قلبى . ولم يهدنى التفكير الى هدية اليق به من كتاب او مجموعة كتب . وكنت اعرف انه كان يشتهى اقتناء مجموعة بوكشين الشاعر كاملة فى طبعتهما الاخيرة ، فعزمت على شرائها لتكون هديتى اليه . وكنت ادخر ثلاثين روبلا ، لاشترى بها لنفسى ثوبا جديدا فأرسلت طاهيتنا العجوز « ماترينا » لتسأل عن ثمن مجموعة بوكشين الكاملة ، فاتضح ان الاجزاء الاحد عشر لا يقل ثمنها مجلدة عن ستين روبلا ، فحرت كيف ادبر بقية هذا المبلغ ، وكرهت ان اطلب من والدتى شيئا ، حتى لا يفتضح فى البيت كله أمر الهدية قبل موعدها ، وقد يساء فهمها فيظن انها بمثابة أجر عن دروس عام كامل تلقيتها عليه مع « ساشا » وذلك أمر لم يجل لى بخاطر ،

عيد الحبيب

لأننى لا أريد قضاء ذلك الدين ، استبقاء ليدى على ، فالأيدى دين
ثقيل ، ولكنها اذا كانت ممن نحب كانت اعز ما يحرص الانسان
عليه وآنس ما يأنس اليه .

ووجدت لى مخرجا آخر الامر من هذا المأزق ، فقد تذكرت ان
من الوراقين من يبيع الكتب المستعملة ، وفيها كتب تكاد
تكون جديدة ، بثمان بخس دراهم معدودات . فلما كان الغد خرجت
لاشتري لأمى بعض حوائجها ومرت بدكاكين أولئك الوراقين
ومعنى طاهيتنا « ماترينا »

واسعدنى الحظ فعثرت دون بحث طويل على مجموعة
بوكشين مجلدة تجليدا فاخرا ، فاذا به يطلب ثمنها لها سبعين
روبلا ، جعلت تتضاءل بالمساومة حتى هبطت الى خمسة وثلاثين
روبلا ، تزيد على روبلاتى الثلاثين بمقدار خمسة روبلات ، فحرت
ماذا افعل ، وكدت ابكى قهرا ، والرجل لا يلين ولا يتزحزح . . .
والطاهية العجوز تضرب كفا بكف لما ترى من جنتى المباغته باقتناء
الكتب . .

وهممت ان انصرف قانطة حسرى ، لولا اننى رأيت فى هذه
اللحظة رجلا لم يجلب بخاطرى ان أراه فى ذلك المكان قط ، هو
بوكروفسكى الشيخ ، ومن حوله خمسة وراقين يتنازعونه العروض
وهو حائر لا يدرى ايها يأخذوايها يدع . . فما أحسبه يدرى عن تلك
السلع الادبية شيئا ، فناديته ، فخف الى مسرورا بلقائى وقال لى
انه بسبيل شراء كتب يهديها الى ولده فى عيد ميلاده . . وكانت
ميزانية تلك الهدية لاتعدو ستة روبلات ، فقنع لذلك بالسؤال
عن قيمة الكتب الصغيرة الحجم ، أما الكتب الضخام الجسم فلم
يجرؤ على السؤال عنها وان ظل يرمقها بنظرات الحسد والكمد
والاشتفاء ! ثم رأيت دمه تترقرق فى عينيه وتنساب على خده

المتغضن في صمت ، فسحبته من يده وقلت له ما انا بصدد ،
وطلبت منه روبلات خمسة استكمل بها ثمن اعمال بوكشين
الكاملة في احد عشر جزءا جميلة التجليد ، لنقدمها هدية مشتركة
بيننا الى « بيتنكا » ، فكاد يجن جنون الرجل من شدة الفرح ،
وأدى المبلغ وحمل الكتب في خفة الشباب وانطلق بها الى بيته ،
واعدا ان يأتيني بها غدا في الحفاء

فلما كان الغد دخل علينا الشيخ ، ثم همس في أذني انه
استودع الكتب « ماترينا » لتحفظها في المطبخ الى الوقت
المعلوم . ثم أفاض في الحديث عن هديتنا وكيف نقدمها ، وكأنه في
تصوراته تلك مراهق يحلم بوصول عروس احلامه اللعوب ! فما
أكثر ما راجع التفاصيل وعدل منها مرة بعد مرة ، وانا اصغي
اليه صامته مستمتعة بنشوته الابوية الحانية . . . واذا بذلك كله
يتلاشى على حين غرة ، لترتسم على معارف وجهه كآبة شديدة ،
وسكت لحظة ثم قال :

— اسمعى يا بربارة الكسيفنا . خذي انت عشرة اجزاء فقدميها
اليه هدية منك مستقلة ، اما انا فسأقدم اليه الجزء الحادي عشر
هدية مستقلة مني . وبذلك يهديه كل منا شيئا على حدة .
— ولكن لماذا عدلت عن مشاركتي في هدية واحدة على الشيوع بيننا ؟
أليس ذلك أجمل وأولى ؟

— كلا يا بربارة . فأنا رجل كثيرا ما اضل عن الطريق السوى
فيلحاني باتينكا ويوبخني ويعظني ولكني رجل ضعيف امام الغواية ،
وقد تصطلح على الهموم مما تصبه امرأتى على رأسي ، ويتآمر
البرد مع الهموم فيدفعان بي الى حان أراه في طريقى وكأنه يفتح
دراعيه ويناديني نداء حوريات الماء التي تفتن سامعها فلا يستطيع
لها دفعا ، فاشرب حتى أثمل . . فأحببت بتقديم هذا الجزء هدية

عيد الحبيب

مستقلة منى ان اقيم له الدليل على استقامتى ، فلولا اثنى ادخرت
دريهماتى ولم انفقها فى حبائل الشيطان لما استطعت تدبير ثمنها
وسيدرك باتينكا اننى ما فعلت ذلك الا حبا له واستجلابا لرضاه
فشعرت بشفقة شديدة على هذا الشيخ المسكين الذى ردت
شقوقه الى سداجة الطفولة ، وقلت له :

- قدم له أنت الاجزاء الاحد عشر جميعا يا زكريا بتروفتش !

- كلها ؟ كيف هذا ؟ أقدمها على أنها هدية منى أنا وحدى ؟

- طبعاً . .

فسكت لحظة ثم قال فى صوت كأنه صوت حالم ينطق وهو

غاف :

- كم يكون ذلك جميلاً ! ولكن ماذا تقدمين أنت يا بربارة ؟

- يا زكريا بتروفتش . ان هديتى ان اراك سعيداً بما اهديت

الى ولدك ، وان ارى ولدك سعيداً بما أهدها ابوه . ويكفينى ان

أسعد فى قرارة نفسى بأن هذه السعادة التى غمرت كما قد قدمتها

وصنعتها يدي فى الخفاء !

فاقتنع بتلك الحجة ، ومكث عندنا ساعتين لا يستقر فى مكان

من فرط الفرح والانتعاش ، وكأنه طفل صغير وعده ابوه بنزهة

فى حديقة الحيوان ، فهو يداعب ساشا وكأنه من لداتها ، ويتغنى

بما يعرفه من الاناشيد ، ثم يميل فوقى فيقبلنى خلسة ، او يقرص

ذراعى . فما رأيت فى حياتى أحداً استخفه الفرح كما استخف

ذلك الشيخ يومنا هذا .

فلما حل اليوم الموعود حضر الى بيتنا فى تمام الحادية عشرة ،

عقب انتهاء الصلاة فى الكنيسة نظيف الھندام حسن الزينة .

فدخل علينا وفى يديه لفافتان من الكتب ، فوجدنا مجتمعين

عند « انا فيودروفنا » لاحتساء القهوة على عادتنا يوم الاحد .

فبدأ بالكلام عن بوشكين ، فذكر انه شاعر من خير من نظم القوافي
 باللسان الروسي ، ثم تلعثم وارتيج عليه فلم يدر كيف ينتقل من
 تلك المقدمة الادبية الى صلب خطبته ، فترك محاولة التمهيد
 ودخل في الموضوع منوها بفصائل الاستقامة ، وان البغي يحيق
 بأهله ، وضرب لذلك الامثال مثنى وثلاث ورباع ، ثم اختتم
 مقالته بأنه تاب واناب وترك الضلالات والمفاسد منذ حين ،
 واستجاب لرغبة ولده المحبوب فصار من القوم الصالحين ..
 فهو لا يحتسى الخمر ولا يتشهاها فأفاء ذلك عليه صحة وطمأنينة
 نفس ، وافاده يسرا في المال بعد عسرة واتاح له ان يهدي ولده
 الحبيب تلك المجلدات الحسان بما ادخره في زمن توبته الاخير ..
 وقد وجدت عناء شديدا ، في مغالبة ضحكي اول الحديث ثم
 في مغالبة دمعى في أخراه ، فما أبرعه في الكذب حين يقتضى
 الحال منه أن يكذب ، ولكن باعث الكذب شعور جميل يلمس
 كل قلب للرحمة فيه موضع وللحنان عنده معنى ..
 وحمل الشيخ هديته الى حجرة ولده ، فوضعها على رف المكتبة .
 ثم دعونه الى الغداء معنا فقبل الدعوة جذلان ، وقضى معنا
 سحابة النهار في سعادة غمرتنا جميعا بأشعتها الدافئة .
 واحسب بوكروفسكى قد ادرك الحقيقة لا لوهلة ، فقد كان دائم
 اللطف والرعاية لى ، وكانت في عينيه ومضات رقاق . وما اكثر
 ما تلمس الفرصة كي يحدثنى على انفراد ، ولكنى كنت افوت عليه
 ما يريد ، رائغة منه روغان التدلل والانتشاء بأفاويق السعادة التى
 حفل بها يومنا الفريد كأنه الغرة فى جبين الدهر ..
 لقد كان يومى ذاك اسعد ايامى فى سنوات اربع من حياة طالما
 خيمت عليها ظلمة الشقاء ..

رياح الخريف

لقد سعدت سحابة نهار أقصى مايسعد به أبناء الفناء . ولكن
سعادات دنيانا « سحائب صيف عن قريب تقشع » ..
مضت أيام الهناء المشرقات ، وخل وشيكا شبح الكآبة الذى
أراد الله أن يرين على أيامى بعد ذلك ، حتى وقتنا هذا . .
وكأنما استشعر القلم فى يدي انه لم يبق أمامه من كلام يسطره
الا مايقطر حزننا ويثير اللوعة والحسرات .. فغدا ثقيل الحركة ،
بطيء الخطو ، كالمشفق مما سيخطه فى صفحة القرطاس .
لقد هبت رياح الخريف الباردة الهوجاء فبددت دفء أيامى
وقوضت صروح أحلامى ، كأنها بناء من الرمال ، فاذا بها ذرات
فى قبضة الهواء ، وهباء ضائع فى خلاء ..
وكانت فاتحة تلك الاحزان علة بوكروفسكى التى ألزمتها الفراش
حيناً ، ثم أسكنته رمسه الى يوم يبعثون .
فقد قضى بوكروفسكى أسابيع تباعا يبحث عن عمل ثابت ،
فلم يجد الا وظائف التدريس وأعمال الدواوين ، وهى كلها
مما لا تسمح له صحته الواهنة أن يزاولها . . فقد كان
بوكروفسكى مضطرباً بذات الصدر منذ سنوات ..
وأضناه هذا البحث الدائب عن العمل ، ولكنه لم يلق الى ضعف
صحته بالا ، حتى أقبل الخريف ، وليس لديه ما يكفل له الدفء
الواجب فى روحاته وغدواته . وصار أيسر الماء يجد من نعليه
البالين منفذا الى قدميه .. وهو لا يكثر لشيء من هذا فى سبيل
الحصول على عمل وطيد .
له الله ! لقد كان ذلك المصدور الشاب متعلقا بالحياة كيرالآمال
فى بقاء طويل .. ولكن الداء لم يترفق بآماله الكبار ، فألزمه
فراشه ذات يوم فلم يبرحه بعد ذلك أبدا الا فى صندوق مقفل ،
الى حفرة فى الثرى ، فى أخريات اكتوبر ، ورياح الخريف الهوجاء

تصفر في الارض الخلاء كأنها عزيف الجن أو أنات تاكل محزون .
لزم بوكروفسكى فراشه ، ولزمت أنا جواره لأبرحه مدة
رقاده وضنائه ، فكم من ليلة قضيتها الى جانب سرير ساهرة
العين ، مؤرقة الجفن ، واجفة الفؤاد .

ولم يكن كامل الوعي في جميع أحواله ، فما أكثر ما كان يهذى
بكتبه وأوراقه ، وبالعمل الذي ينشده فلا يعطاه ، وبأبيه . .
وبى أنا . . فعرفت من هذيانه ما لم أكن أعرف من خبايا حياته .
وكان من فى البيت يرموننى أول الامر بنظرات العجب والانكار ،
ولكنى لم أغض الطرف ، فما كان فيما آتى شىء أخزى له أو
أغضى ، فتركونى وشأنى وسلموا بحقى فى السهر على هذا المريض
المنكود . .

وزادت وطأة العلة عليه يوما بعد يوم ، فصار لا يفيق من هذيانه
ويثوب الى رشده الا لاما . . . فنهاره أنين ، وليله فزع وهذر
محموم ، يناجى ربه أو يناجى نفسه ، أو يتحسر على مافات من
طلاب ، أو يندم على ما فرط منه من هفوات الشباب . وهو فى
نجواه لا يستقر من رعدة ، ولا يهدأ من تفرز ، فكأنه لذيغ مشف
على الهلاك . فكانت «آنا فيودروفنا» تضرع الى الله أن يرفع عنه هذا
العذاب ويخلصه من نزع الليم فيضمه اليه . .

ودعونا الطبيب ذات مساء ، فقال ان المريض قد دنت نهايته ،
وانه ملاق قضاءه المحتوم زهاء الصباح من غد . فقضى بوكروفسكى
الوالد الشيخ تلك الليلة قائما فى الردهة أمام باب ولده المحتضر ،
وكان يدخل عليه فى الحين بعد الحين ليلقى عليه نظرة جامدة . .
فقد أذهل الجزع الشيخ وسلبه ذماء نشاطه وحيويته ، فهو متبلد
الحس كالمعتوه لا يحير قولا ، ولا يملك نفعا ولا ضرا . . وانما هو

يسر الى نفسه كلاما لامعنى له ولا اتصال بين أطرافه .. حتى
لقد خيل الى أن الاب المسكين قد أصابته جنة أو مسة خيال .
وقبيل الفجر غلب التعب جسد الشيخ فنام على طريجة من
الحشايا بسطت له فى الدهليز ، فلما وافت الساعة الثامنة ، وبدأت
غبرة الموت تسطو على محيا ولده أيقظته ليودعه الوداع الاخير .
وكان بوكروفسكى فى تلك اليقظة التى يهبها الله للذاهبين
اليه من عباده ، فودعنا جميعا فردا فردا ..

فيا الهى ! ما كان أشقانى ، وما كان أشد فجيعتى حتى لكأن
نصلا تعملها يد سفاح فى شغاف قلبى .. ولكنى مع هذا لم أجد
فى عينى قطرة دمع أذرفها ، لعلها تطفىء بعض ما أجده من أوار
الفراق ..

وخانه لسانه بعد حين ، فكان يحاول الكلام فيلتوى عليه الكلام ،
فيشير بيديه فلا أفهم ما يريد ، فجعلت أقرب منه كل شئ فى
الغرفة ، وأدنى منه كل انسان فى البيت ، ولكنه كان يهز
رأسه سلبا .. حتى فهمت أخيرا ما كان يعنى .. ففتحت مصراعى
النافذة ، وأزحت عنها الستار ..

فالشباب المسكين المتعلق بالحياة وما يمثله كل جميل فيها كان
يشتهى أن يلقي نظرة أخيرة على نور الشمس ، والافق البعيد ،
والسماء المشرقة بأضواء الصباح .

ولكن هيهات ! ان الدهر أبى عليه حتى هذا المطلب الاخير ،
الزهيد .. فقد كانت السحب تغطي صفحة السماء ، وكانت
على الارض عتمة قابضة ، وفى الجو قتام ينذر بالمطر ، ويغرى
بالبكاء .. بكاء الناس ، وبكاء السماء ..
ورمقنى الفتى المحروم بنظرة تقطر أسى واكتئابا ، وهز رأسه

فى اذعان وجيع ..

ثم مات ..

عندما يموت الفقراء

مات بوكروفسكى فى ضحوة النهار ، فنشطت «أنافيو دروفنا» لتجهيزه ، حتى تغادر جثته بيتها فتخلص من مصدر ضيق لوبقى هناك لا قرض مضجعها . ومن عساه كان يهتم بالفتى الفقير ؟ أو والده المذهول المذهب بلبه ؟

وما كان تجهيزه أمرا عسيرا : فان هو الا تابوت بسيط من أرخص أنواع الخشب ، وعربة نقل اكرتها بأرخص ما وسعها أن تكتريها . ولم تنس أن تتعوض عن هذه النفقات بالاستيلاء على كتب الفقيد وجميع ممتلكاته الشخصية ، وما أهونها . .

وقد اعترض الوالد المفجوع ، فمخلفات ولده تذكارات مقدسة فى نظره ، ولكن اعتراضه لم يجده قتيلا ، لولا انه ثار وأنشأ يصرخ ، فخافت «أنافيو دروفنا» العاقبة ، وتركت له من المجلدات ما تشبث به كالمجنون . فصار يملأ بها قبعته البالية ، وجيوبه .

يا للأب المسكين ! لقد احتفظ بتلك الكتب فى جيوبه وفى قبعته ثلاثة أيام لا يفارقها ، حتى وهو فى الكنيسة . . وما أحسب نفسا رآته يوم وفاة ولده الا ذهبت حسرة على هذا الشيخ المرزوء : فقد كان يروح ويجىء فى حركة لا تفتقر ، فاغر الفم ، شاردا النظر كمن يسير فى حلم ، وله حول التابوت تطويق لا هدف له ولا غاية ، فهو يحف بمثوى ولده لانه لا يستطيع عنه حيالا ولا زيارا ،

ويسوى منه ما لا يحتاج الى استواء ، ويترفق بلمس خشب التابوت ويربت عليه كأنه يحس منه الملاينة والحدب . . أو يضيء الشموع ويقوم ما اعوج منها بفعل الحرارة ، ويعيد ترتيبها حول التابوت كى تكون أتم زينة وأحسن نظاما . . ولم يكن فى الكنيسة أحد سوانا ، فقد عاق المرض أمى عن الحضور ، وأما «أنافيو دروفنا» فأحنقها شجارها مع بوكروفسكى الشيخ وأحفظها عليه فبقيت مع أمى . . فكذا ثلاثة فى الكنيسة بين يدى الله :

عند ما يموت الفقراء

الجسد الذى يصلى عليه ، والوالد الثاقل ، وأنا . . فلما بدأت الصلاة الخافتة وأخذت اصداؤها ترن فى الكنيسة الخالية غامت فجاج نفسى ، ورانت عليها كآبة لاحد لها ، كأنها نذر المستقبل القاتم الذى كان ينتظرنى بضربات الشداد وفواجعه التى تفتت الأكباد وتفري الاجلاد . . ولقيت عننا شديدا فى البقاء الى نهاية الصلاة المبتسرة التى كانت كل ماليت من الفقراء فى ذمة خدام الله ورعاة عهد الناصرى المولود فى مزود بقر ، والذى عاش بلامأوى حيث للطيور أو كآر وللضواري كهوف وأوجار . .

فلما أحكموا على التابوت غطاءه ، ودقوا فيه المسامير بدقات من المطرقة غير مترفقة بسكون البيعة وجلال الموت ، حملوه الى العربية ، فانطلق بها السائق ليلوى على شئ وصحبته راجلة الى نهاية الشارع الصغير ،

فما أن بلغنا هذا الموضع حتى ساط السائق جياده فغدت السير خبيا ، وأخذت العربية تبتعد عنا ، فجرى الوالد المفجوع وراءها ماظاوعته ساقاه الضعيفتان وهو يجأر بالبكاء بأعلى صوته ، ونشيجه الثائر الحمم يترجع فى صدره ويتقطع مع اهتزازات جسمه وهو يعدو .

وسقطت قبعته من فوق رأسه ، فلم يتلبث ليستعيدها ، بل تركها حيث هى على الارض واستأنف الجرى ، ولعله لم يحس بسقوطها . . وبلل المطر المنهمر رأسه العارى ، وأخذت الرياح القارسة العنيفة تهراً وجهه . . فما أحس لذلك كله وقعا ، وهو يجرى كالمجنون حافا بالعربة عن يمين أو عن شمال ، باكيا بلا احتجاز ، والرياح ترفع أطراف ثوبه وأذياله فكأنها أجنحة سود بسطها ملك من ملائكة العذاب فى وادى الحشرات من فجاج سنقر .

عند ما يموت الفقراء

وكانت الكتب تساقط من جيوبه وهو يجرى ، فلم يبق له منها
الا سفر كان يتشبث به في يديه تشبثا غير واع . . . وكان هذا
الموكب الصغير ، أصغر مواكب الموتى وأبسطها وأفقرها على
الاطلاق ، كلما مر بأحد من الناس أثار اللوعة والاسى في قلبه فرسم
على صدره علامة الصليب

وعند منحني الطريق لقيت الموكب سائلة عجوز كانت تستندى
الأكف ، فما رآته حتى لحقت به وأنشأت تجرى بجوار الشيخ
وراء العربة المسرعة ، التي لم تأخذ سائقها شفقة بهذا الاب
الشيخ الذي هد العدو قواه ، فالراحة والمجاملة سلعة لا يقوى
على ثمنها الفقراء . . . أما السائلة المعذمة فأدركت مبلغ مامنى به
هذا الفقير من الشقاء ، فأسرعت تشاركه في ثمالة الكأس دون أن
تعرف من هو . . . وما جدوى من هو ؟ لقد كفاها انه مسكين ،
وانه يتلقى الرزء الفادح وحيدا في الحياة ، لانه مثلها . . . انسان
فقير .

وغابت العربة عن نظرى ، فعادت الى البيت وارتيمت على
صدر أمى ، وقد استولى على يأس قاتل . . . وأخذت أقبلها وأضمها
الى صدرى ضما عنيفا ، كأنما لاحس اننى لست وحدى ، ثم
وضعت رأسى على صدرها وبكيت بكاء طويلا ، وذراعى حول
عنقها . . . كأنما لاصونها من فقدان وأمنع عنها يد العفاء التي
انتزعت منى صديق روحى . . .

ولكن هيهات ، هيهات ! فان ملك الموت الاسود كان يحوم
حولها وينتهاز الفرصة المواتية للانقضاء . . .
رباه ! ما أظلم أيامى . . .

عود على بدء

١١ يونية

من لى بشكرك يا مقار الكسيفتش على ما اتحت لى من الهناء
بتلك الساعات التى قضيناها معامتزهين فى أرباض المدينة وعلى
شطان نهر النيفابين الماء والهواء والخضرة الياينة . . فما أبعد
عهدى بتلك المناظر الحسان .

لقد خيل لى أثناء مرضى اننى لن أرى الطريق مرة أخرى ،
فأنظر كيف كان شعورى وأنا أنعم بالنزهة بين النور والزهر
والماء النмир . . فلتن ذرفت دمعتين بين يديك أمس ، فلا
عليك ، فما هما الا من دموع الفرح الذى فاضت به جوانحى
. . ومن الاسى أيضا يا صديقى فان سكون الاصيل ، وشمسه
المائلة الى الغروب ، وهدوء الطبيعة الرحبة الآفاق ، قد
أثارت فى نفسى رواسب الاشجان ولا يثير الاشجان والاحزان مثل
تقائضها من الافراح والمسرات .

تالله كم كنت كريما يا صديقى ! . فقد شملتني بحدبك
وحنانك ، وطفقت ترنو الى عيني متعلقا بهما ، كأنما تريد أن
تستشف مشاعرى . وما كنت أبدى اعجابى بشجرة عتيقة أو
جدول رقراق ، أو طريق ملتو كالثعبان بين العشب المزهر ، الا
امتلات باعجابى بها زهوا ، كأنها ملك يمينك ، وكأنك رب الضيعة
الذى يثلج صدره أن يطرى الناس بستانه الموروث ! ألا ما
أطيب قلبك يا صديقى مقار ! ان طيبة قلبك خير ما فيك ، وهى
علة تعلقى بك وحبى لك .

والآن وداعا يا صديقى ، فقد تعبت من الكتابة . . فبالامس
ابتلت قدمائى وأصابنى من ذلك برد يسير أحس له اليوم فى بدنى
هزة . . وفيدورا مريضة أيضا . .

لا تنسنى يا صديقى ، وتعال لزيارتى ما استطعت .

بربارة

١٢ يونية

يمامتى العزيزة بربارة ألكسيهنا !

لقد توقعت أن تأتيني منك قصيدة عصماء فى وصف نزهتنا الرائعة ، فاذا صفحة قصيرة لا تنقع غلة الصادى .. ولكن عجباً! لقد جمعت فيها فأوعيت ، ولم تفتك شاردة من مناظر ذلك الريف الجميل . ولو حاولت ما حاولت لما كفتنى صفحات وصفحات ، وهيهات ان أبلغ ما بلغته فى سطور معدودات . وقد أثلج صدرى ما أضيفته على من قلائد المديح ، وما ذكرته من طيبة قلبى وصفاء نفسى .. وانى والله لكذلك !

وانى مجيبك الآن الى ما سألتنى مرارا من قصة حياتى . فقد دخلت الخدمة فى سن السابعة عشرة ، وقضيت فيها حتى الآن ثلاثين سنة ، أفدت فيها تجربة ، ونضجت فيها سننى ومشاعرى . ولكن القدر سخر لى من تطوعوا للدس لى والتهوين من قدرى ، مستغلين طيبتى وحبى للعزلة والاعتكاف ، فكل خطأ يقع من أحد يسندونه الى ظلما ، وهذه يا أختاه ضريبة الطيبة ومحبة السلام !

وكذلك بقيت كما كنت منذ ثلاثين سنة « نساخا » ، وكل ما هناك اننى « نساخ أول » ، فخطى جميل ، وجميع أوراق سعادة المدير أنا الذى أكتبها بيدي . وهو كما ترين عمل ليس ذا بال ، وان كنت أراه حسنا غير مهين . ولكن الناس يلقبوننى « بالفأر » لأننى أعيش دائما بين الاوراق ، وأدنيها من وجهى لضعف بصرى ..

لاكن اذن فأرا ، فأى خير فى شبه الناس بالفيران ، أليس الفأر

مما خلق الله في الدنيا لحكمة يعلمها سبحانه ؟
يؤسفني انني اندفعت هذا الاندفاع في الحديث عن نفسي ..
فعفوا يا يمامتي ، وعذري انك مصدر عزائي الوحيد في الحياة ،
فاليك أتجه بأحزائي ملتمساً سلوتي عند قلبك الكبير .
سأزورك قريباً يا عزيزتي ، وسأحمل اليك كتاباً تتسلين
بقراءته أما الآن فوداعاً

صديقك المخلص
مقار ديوفشكين

٢٠ يونية

عزيزي السيد مقار الكسيفتش
أكتب اليك على عجلة من أمري ، فلدي عمل يجب أن انتهى
منه اليوم . وقد سمعت من « فيدورا » بصفقة لم أحب أن
تفوتك بحال : فثمت كسوة موظف كاملة ، في حالة جيدة جداً
معروضة للبيع بثمن معقول للغاية . . فلا تقل انك لا تملك شراءها ،
فقد قلت لي مراراً انك تدخل شيئاً للطوارئ . وليس الشح
مستحباً يا صديقي الى الدرجة التي تضمن فيها على نفسك بزي
لائق . ألا تنظر الى صورتك في المرآة؟ ألا ترى كيف خلقت حلتك
ونصل لونها ، وصارت للرقع فيها صولة وجولة ، حتى كاثرت
في مساحتها نسيجها الاصيل ! ولست أصدق أن لديك كسوة
أخرى جديدة ، وان كنت تكرر على مسمعي هذا الزعم في كل
مناسبة . فأتوسل اليك أن تشتري هذه الحلة يا صديقي ،
من أجل خاطري .

ثم ما هذا القماش الذي أهدتيه ؟ انه قمماش غالي الثمن
ولاشك . وما أراك الا تكلف نفسك رهقاً بما تغمرني به من
الالطاف ، وما أكلفك في نزعتي وعلاجي . . وما كنت بحاجة الى
هذا القماش الفاخر في الوقت الحاضر . فلماذا اشتريته ؟ اني
اثقة انك تحبني ، وليس عندي في هذا شك ، وانه ليؤلمني أن

تَحْسَبْنِي بِحَاجَةٍ إِلَى مَا يَذْكُرُنِي حُبُّكَ لِي ، فَأَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَكْفَ عَنْ هَذِهِ الْخَطَّةِ يَا عَزِيزِي مَقَار
لَقَدْ طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ أَتِمَّ كِتَابَةَ مَذْكُرَاتِي الَّتِي قَرَأْتَ طَرَفًا مِنْهَا ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُ ذَلِكَ عَسِيرًا أَلِيمًا ، فَمَا حَدَثَ لِي بَعْدَ وَفَاةِ أُمِّي شَدِيدِ الْوَقْعِ عَلَى نَفْسِي ، وَالْجِرَاحِ الْقَرِيبَةِ الْعَهْدِ وَشَيْكَا مَا تَنْتَكِيءُ ، وَالنَّسْيَانِ - لَوْ أَطَقْتَهُ - مَطْلَبِي فَكَيْفَ أَسْعَى إِلَى تَجْدِيدِهَا بِالذِّكْرِ وَالتَّدْوِينِ ؟

لَقَدْ حَدَّثْتُكَ فِي آخِرِ مُقَابَلَةٍ لَنَا عَنْ « آنا فيودروفنا » وَمَا قَرَّمِينِي بِهِ مِنْ نِكْرَانِ جَمِيلَها وَجُحُودِ أَيْادِيها ، وَتَنْكَرِ مَا أَتَهَمُها بِهِ مِنْ تَوَاطُطِها مَعَ السَّيِّدِ « بِيكُو » عَلَى الْإِيقَاعِ بِي بَيْنَ بَرَائِثِهِ . وَتَلَحَّ عَلَى أَنْ أَعُودَ إِلَى الْأَقَامَةِ فِي بَيْتِها ، عَلَى وَعْدِ مِنْهَا أَنْ تَحْمَلَ السَّيِّدَ بِيكُوفَ عَلَى إِصْلَاحِ خَطِّئِهِ ، بَلْ جُنَايَتِهِ الَّتِي جَنَّاها عَلَى أَنَا الْيَتِيمَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا فِي الْحَيَاةِ مَعِينٌ . . فِيهِبْنِي صَدَاقًا طَيِّبًا - كَمَا وَهَبَ أُمُّ بُو كُروفسكِي مِنْ قَبْلِ - كَيْ أَجِدَ مَنْ يَتَزَوَّجُنِي طَمَعًا فِي ذَلِكَ الصَّدَاقِ !

وَلَكِنِّي أَرْفُضُ هَذَا الْعَرَضَ ، وَأَوْثِرُ الْبَقَاءَ حَيْثُ أَنَا الْآنَ ، نَاعِمَةً بِصَدَاقَتِكَ ، وَبِصَحْبَةِ « فِيدُورَا » الَّتِي يَذْكُرُنِي وَلَاؤُها مَرْضَعَتِي الْعَجُوزَ ، طَيِّبِ اللَّهِ ثَرَاها . . وَلَيْسَ لَتَقُولَاتِ النَّاسِ عِنْدِي أَدْنَى اعْتِبَارٍ ، فَانْتَ قَرِيبِي - بَعِيدَةٌ مَا بَعُدَتْ صِلَةُ هَذِهِ الْقَرَابَةِ - وَلَسْتُ أُرِيدُ شَيْئًا سِوَى هَدْوِ الْبَالِ ، وَإِنْ يَدْعُنِي النَّاسُ وَشَأْنِي آمَنَةٌ فِي سِرْبِي .

بِوَبَارَةٍ

٢١ يُونِيَّة

يَمَامَتِي وَأَخْتِي الْعَزِيزَةُ !

لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ أَبْدَأُ الْكِتَابَةَ إِلَيْكَ بِمَا أُرِيدُ أَنْ أَخُوضَ فِيهِ . . أَلَا يَرُوعُكَ يَا أَخْتَاهُ نَمَطُ مَعِيشَتِنَا الرَّاهِنِ ، أَنَا وَأَنْتِ ؟ فَمَا عَرَفْتُ فِي طَوْلِ حَيَاتِي أَيَّامًا أَسْعِدُ مِنْ أَيَّامِي هَذِهِ ، حَتَّى لَكُنَّ اللَّهُ قَدْ مِنْ عَلَى بَاسِرَةٍ هَائِلَةٍ وَبَيْتٍ سَعِيدٍ . . فَانْتَ يَا فَتَاةَ طِفْلَتِي الصَّغِيرَةِ

المحبوبة ، ونور أيامى التى لم تعرف النور !
فأى عجب اذن أن أبعث اليك شيئا من قماش أعجبني فأشتقت
أن يكون عليك منه أربعة قمصان ؟ ثم لماذا تزعمين انك لست
بحاجة اليه ؟ لقد علمت من « فيدورا » انك فى ميسيس الحاجة
الى قمصان ، وما دمت ابنتى فأى شئ أحب الى الاب المحب من
قضاء حاجات فلذة كبده ؟ فكيف اذن تريدان حرمانى من تذوق
هذه اللذة البريئة أيتها القاسية ؟ ..
أتعلمين اننى أخذت أشعر اننى أعيش حياتين وأحيا مرتين ؟
فانت هناك ، وأنا هنا فى بيت يقابل بيتك .. فلى بيتان اذن
وروحان .. فانت روى يا بربارة لو تعلمين ..
لقد سمعت منك مرة انك بحاجة الى حرير ملون للتطريز ..
وغدا سأشتري هذا الحرير ، فأنا أعرف أين يباع .. ودمت
لصديقك المخلص

مقار ديوفشكين

٢٢ يونية

عزيزتى بربارة الكسيفنا .

لقد وقع يا صديقتى العزيزة فى بيتنا حادث مفرع جدير
بأعماق عواطف الاسى والرتاء . فقد اختفت يد الموت فى نحو
الساعة الخامسة صباحا طفلا من أبناء مدام جورشكوف الثلاثة .
ولا علم لى بما كان يشكو منه ، فعلم ذلك عند الله وحده .. وقد
زرت بهذه المناسبة غرفة جورشكوف وآله ، فيالله
يا أختاه ! ذلك حقا هو الفقر المروع والشقاء المهين ! فالأسرة
كلها تعيش فى هذه الحجرة الضيقة ، يفصل قسميها حاجز
من قماش رقيق حفاظا على مقتضى الحياء .. وكانوا قد
دبروا أمر التابوت ، فما رأيت أوجع للقلب من هذا التابوت
البسيط ، الذى أعد لتطوى فيه نفس بلغت العاشرة من سنوات
هذه الدنيا ، وبدأت تتفتح للحياة وتتطلع لافاويقها ، فنحيت الكأس

عن شفيتها وحيل بينها وبين نور النهار !
كان هذا الغلام معقد آمال أبويه المسكينين ، فقد كان ذكى
الفؤاد ، عطوف القلب وديعا .. فانهار الامل فى مطلع هذا
الصباح .

ولم تذرف الأم دمعة ، ولا أطلقت صرخة ، وانما هو الوجوم
الشديد ، فى مسكنة وقنوط .. وأحسب المسكينة لم تخرج من
حسابها ان موت ولدها قد حل جانبا من معضلتها اليومية
الكبرى : وهى اطعام تلك الحواصل الزغب ، حواصل بنيتها
الجياع ..

أجل ، لقد أقفل الموت فما من الافواه الثلاثة .. ولكن بقى
فمان اثنان ، ومازال الاشكال قائما ملحا .. فأى عذاب
يا الهى يسامه هؤلاء الناس فى كل يوم من أيام حياتهم النكراء :
فليس أوجع للقلوب من رؤية طفل يبكى جوعا ، وهذا الطفل
فلذة كبده المرء ولحمه ودمه ، وهو لا يستطيع له شيئا ، ولا يدرى
كيف يرد عنه غائلة الوحش الذى ينهش امعاءه الخاوية !

أما الاب الوالد ، فكان قابعا فى مقعده فى ثوبه الخلق ،
ودموعه تنساب على صفحة خده فى صمت .. ولعل تلك الدموع
لم تكن دموع الفجيعة ، فقد طبعت الفاقة المذلة عينيه بطابع
دامع على الدوام ..

وأما ابنته التى لا تتجاوز السادسة فكانت متكئة فى وقفاتها على
التابوت ، تنظر الى أمام دون أن تنبس ببنت شفة .. وقد
استغرقها تفكير حزين .

رباه ! شد ما أكره أن يصمت الاطفال ويستغرقوا فى التفكير
قبل الاوان .. فما الطفولة الا لعب وانطلاق ، أما الكآبة يا الهى
فقطيع جدا أن يرمى بها الاطفال !

لقد عرضت عليها ربة الدار قطعة من الحلوى ، فلفظتها في
صمت وهدوء ، كأنها شيخ فان عافت نفسه طعوم الحياة
وحلاوتها المشتهاة .
ان هذا فظيع .. فظيع جدا يا أختاه

مقار ديوفشكين

مفردات الطرقت

٢٧ يونيو

عزيزى السيد مقار

تؤكد لى فيدورا أن فى وسعى أن أحصل على عمل طيب فى أسرة فاضلة ، أقوم على تربية أطفالها الصغار ، فليس فى عمل القهرمانه عار . فما رأيك أنت يا صديقى ؟ أقدم أم أحجم ؟
ان هذا العمل سيرفع عنك عبء كفالتى ، وهو عبء أراه ثقيلًا أود من كل قلبى لو تخففت منه . ولكن قلبى لا يطاوعنى على الاطمئنان الى الحياة فى بيت غريب بين قوم غرباء . . . وأنا أخشى الغرباء ، فأول ماسيعنون به هو سؤالى عن ماضى حياتى ، وأنا لا أحب أن أكشف جراح قلبى لكل انسان . . ثم أنت تعرفنى نفورا لا آنس الى الناس فى يسر ، ولست أحب فراق من أنست اليهم ، أو تبديل ما ألفته من نمط الحياة . . وان الى ما هو خير . . .

يضاف الى ذلك ان هذه الاسرة تقطن حيا بعيدا عن هنا ، فاستشعر الوحشة لذلك البعدا بها الجار الصديق . وليس فى ظروفهم ما يشجع على الثقة بهم فقد استبدلوا بقهرمانتهم أخرى ثلاث مرات فى سنتين ، فقد يكونون من أهل الفطرسية أو الغلظة وسوء الطوية

انى حائرة يا صاحبنى فأصدقنى النصيحة . ثم لماذا انقطعت عن زيارتى ؟ انى لم أعد أراك أو اجتمع بك الا فى قداس يوم الاحد ، فيالك من معتزل نفور ! وانك فى هذا لصنوى . . ولكن تذكر انك من ذوى قرباى ، وان شعورى بالوحدة يثقل على صدرى . واشد ما يكون ذلك الشعور فى ساعات الفسق ، عندما تخرج فيدورا لشراء ما يلزمنا من السوق ، فاذا بخيالات الماضى ترود حولى ، حتى ليخيل الى انى اراها راى العيان . . .
يا لله ما اشقانى بهذه الرؤى وانها لتنال من صحتى وعافيتى

أيما منال .. وها هوذا السعال المقض قد انتابنى كرة أخرى ،
حتى بت أشعر بذنو أجلى ..

فمن يا ترى سيعنى نفسه بتجهيزى ؟ من الذى سينتقى
لى التابوت ، ومن الذى سيدرجنى فى أثوابى ويزيننى للموت ؟ ومن
الذى سيسير خلف نعشى ويصحبنى الى مقبرى الاخير ؟ ومن
سيبكينى ليرطب ثراى بدمعه ؟

هل كتب لى الله فى أزلى علمه أن أموت فى بيت غريب ، بين قوم
غرباء ، فلا يقوم على رحلتى الاخرة أحد ، ولا يؤنس ليلتى
الاخرة فى الدنيا مدمع حميم ؟
ألا تعسا للحياة ؟

بربارة

٢٨ يونيه

أختى الصغيرة برباره !

ما هذا الهذر الذى يبىض فى رأسك الصغير ويفرخ ، فيشقى
له قلبك فى غير مدعاة للجزع والعناء ؟ وكيف سولت لك نفسك
أن تتوهمين المرض الوبيل فى عارض تافه ؟ وما حدا بك الى
الاعتقاد بتداعى صحتك وذهاب عافيتك ؟ انى أراك على العكس ،
ريانة كالزهرة المونقة ، تنفح روحا وريحانا ، وأرى للعافية فى
وجنتيك وأعطافك ماء يجرى ويكاد يتفجر بالقوة والشباب .
ثم ما هذه الاحلام البشعة يا أختاه ؟ اطرحيها من ذهنك ،
واقتردى بى فى استدبار ما يحزن ويسبب تلك الكوابيس الثقالة .
وما ذلك الحديث الذى تسوقينه عن العمل أجيرة فى بيت قوم
غرباء ؟ انه لرأى سقيم وتفكير غير مستقيم ... فأستحلفك ألا
تفكرى فى شىء من هذا القبيل يا حياتى ، فماذا أفعل من بعدك ؟
اننى قمين أن أموت كمدا ، كما يموت السمك اذا أخرج من الماء
وماذا ينقصك فى حياتك الراهنة ؟ وأى شىء يسخطك عليها
وينفرك منها ؟ ابقى حيث أنت ناعمة البال ، ولا تكلفى نفسك

مفرق الطريق

مشقة التفكير في شيء ، وسأتيك بكتب تقطعين بقراءتها الوقت .
وقد نخرج يوما للنزهة في أرباض المدينة ، كما خرجنا المرة السابقة
وسأتي لزيارتك قريبا ، ولكن على أن تعديني أولا ألا تعودى الى
التفكير في هجر جوارى الى مكان مجهول بين قوم غرباء .
وانى لك على الدوام

الصديق الوفي
مقار ديوفشكين

عزيزى مقار !

كلا يا صديقى . كلا ! لم يبق لى بهذه الحياة طاقة ولا عندى
عليها صبر . فقد صح عندى أننى ارتكبت خطأ فادحا حين
رفضت العمل الذى أتيح لى بعيدا عن هذا المحيط الذى نعيش
فيه . . . فقد كانت لذلك العمل مزية لا مزية فيها ، فهو يضمن
لى على أقل القليل لقمة تقيم أودى وعيش كفاف لست أملك
له اليوم ضمانا بأى وجه من الوجوه . . . وكنت قمينة أن
أروض نفسى على وحشة الغربة ، وأن أحملها على ملاينة الناس
ومداراتهم . ولعل هذا كان أجدى على من الانطواء السخيف على
نفسى . .

وهل ترانى يا صديقى لأشعر بما أكلت من يحبوننى من المشقة
والنفقة ؟ أجهل أن « فيدورا » العجوز تنهض قبل مشرق
الشمس كي تغسل ثيابى ، وتخدمنى ، وأنا عاجزة عن خدمة
نفسى بما يشغلنى من التطريز أو بنوبات المرض ؟ وهل أجهل أنك
تحمل نفسك ما لا تطيق من النفقات فى سبيلى ؟ وإذا كان
لدىك الآن شيء من المال لأنك كوفت مكافأة استثنائية كما
قلت لى ، فماذا تراك فاعلا حين ينضب ذلك المعين الموقوت . . .
وأنا معتلة الصحة ، لا تفرغ لى حاجة الى دواء أو كساء . . .

لقد آن لمرضعتى العجوز أن تستريح ، وأن لك أنت أيضا
يا صديقى أن تستريح من هذا العناء . . وليس لكما من سبيل

مفرق الطريق

الى الخلاص سوى أن التحق بالعمل في بيت كريم ..
فلماذا تصر على استبقائي؟ ما جدواي عليك يا صاحبى
العزيز؟ ليس فى لك نفع، فأنا لا أحسن إلا التعلق بقلبك النبيل،
ولك عندي محبة لا مزيد عليها. ولكن أى طائل تحت هذا لك
يا صديقى؟

فكر فى الامر، ولا تبطئ على بقرارك الاخير ..

المخلصة الودود

برباره

أول يوليه

هذر وهراء ما تقولين يا فارينكا! ما هذه الخواطر السوداء
النكراء التى عششت فى رأسك يا أختاه؟
أنت جاهلة يا فارينكا بحياة الناس، وليست لك خبرة بما
فيها من متاعب ومشاق ... فأنت لا تفقهين معنى الإقامة بين
قوم غرباء، لا يعنيههم أمرك، وإنما يعنيههم منك أمر أنفسهم.
أما أنا فأعرف تلك الحياة يا فارينكا، فقد أكلت من خبز الغرباء،
فوجدته علقما وصابا، ولم أجد فيه شبعاً من جوع، ولا راحة
من تعب، ولا رحمة من عذاب!

ما الذى ينقصك يا عزيزتى فى حياتك الراهنة حتى صرت
تضيقين بها كل هذا الضيق؟ أهو ما تزعمين من ثقل عبئك
على كاهل «فيدورا» كاهلى، وأنه لا نفع فيك لنا؟

أأنت لا نفع فيك لنا؟ ولولاك لما كان لنا بحياتنا انتفاع ..
فأى نفع لى أنا سوى أن أكون ذا نفع لك يا يمامتى الحبيبة؟

هذا هو السؤال الذى كان ينبغى أن تسألى نفسك إياه
ألا ما أقسالك يا فارينكا ... أترارك تستعجلين ساعة يحملنى
فيها الحاملون على ظهرى الى مقبرة فى ظاهر المدينة .. فيرمى
الناس وراء نعشى بحفنة من التراب فى حفرتى الباردة، ثم



مفرق الطريق



يتركوننى فيها وحيدا ، ويهودون الى حياتهم دونى ؟ لكأنى بك
بهجرانى تستعجلين لى وحشة القبر أفرد فيه ودونى جندل
وصفائح ... فحياتى بدونك يا فارينكا موحشة كالقبر ،
قاسية كالموت ...

فأستحلفك بكل عزيز ومقدس يا فارينكا ألا تجرعينى هذه
الكأس ، وأن تحولى عن شفتى مرارتها ... فانها أقسى من
احتمال قلبى الكسير ، الذى تركت فيه أثارها الايام ، وملاّت
صفحته بالندوب ...

ارحمى تعلقى بك يا أملى الفريد ، وارحمى نفسك أيضا بأختاه
من قسوة الغرباء على قلبك الرقيق ...
فانك ان ترحمى قلبى ، يرحمك الله ويجزى لك خير مايجزى
أهل المروءة والاحسان .

صديقك المخلص الوداد

مقار ديوفشكين

عزيزى السيد مقار !

لقد باعت « فيدورا » الحرير الذى طرزته بيدي بخمسة عشر
روبلا ، أعطيتها منها ثلاثة ففرحت بها فرحا عظيما ..
وانى أكتب اليك على عجل ، لأننى أريد أن أحيك لك صدارا
من نسيج جميل أصفر اللون فيه زركشة صغيرة بيضاء تمثل
أفانين من الزهر ، سيعجبك كثيرا .
أرسل اليك مع هذه الرقعة كتابا فيه مجموعة من القصص ،
أوصيك أن تقرأ منها على الخصوص قصة المعطف للكاتب
« جوجول »

ألا تزال مصرا على اصطحابى الى مسرح التمثيل ؟ أليس
هذا بذخا باهظ التكاليف ؟ .. ان فيدورا تردد على سمعى فى
الايام الاخيرة انك تنفق أكثر من دخلك ، وهذا رأى أيضا ، فما

مفرق الطريق

أكثر ما أنفقت على في غير موجب . . فاحذر يا عزيزى أن يصيبك
من ذلك البسط في النفقة ما يضرك . .
لقد نقلت الى فيدورا ما تناهى الى سمعها من خلاف نشب
بينك وبين ربة الدار ، لتأخرتك في سداد أجر سكنك . . فأقلقنى
هذا الخبر ، وعسى ألا يكون صحيحا . .
وداعا يا صديقى . . وليتك ترجع عن دعوتى الى مشاهدة
التمثيل . .

بريارة

ملحظ : لقد خطر لى خاطر أحببت أن أستطلع رأيك فيه :
ألا يكون جميلا أن ارتدى - اذا ذهبت معك الى مسرح التمثيل
- قبعتى الجديدة ، وشيالى الاسود ؟ أترى ذلك يزيننى ؟
٧ يولييه

عزيزتى بريارة

. . . أصل ما انقطع من حديثى اليك بالأمس .
أجل يا أختاه ، لقد عرفت فيما مضى من أيام شبابى ما
تنطوى عليه كلمة النزق أو الضلالة من معنى ، حين أغرمت
بتلك المثلة الفاتنة . وقد لا يكون هذا وحده دليلا على خبالى
وسوء رأيى . . . وانما الدليل على ذلك أكبر الدليل هو اننى
لم أر هذه المثلة قبل افتتاحى بها الا مرة واحدة ، وهى على
خشبة المسرح

وأنكى من هذا اننى أحببتها حتى قبل أن أراها تلك المرة
الفذة . فقد كنت أساكن خمسة شبان من الطلاب المتهوسين ، لم
تكن تفوتهم رواية من رواياتها فاذا عادوا الى البيت آخر الليل
لم يتركوا لى فرصة للنوم ، لكثرة ما يتجدثون فى حماسة عن
معبودتهم الحسناء . فكلهم كان عاشقا مدنفا على البعد بها ،
فالحب كخلائق الناس جميعا يعدى ، فانتقل حبها الى قلبى

الخلي . وذهبت معهم الى مسرحها ذات ليلة ، فخرجت متيما لا أملك مقاد لبي . . فقد كان صوتها عذب الجرس صافيا كأنه غناء البلبل وعدت الى مثواي وكأني أعيش في حلم . وتحسست جيوبى جميعا واحدا واحدا ، فلم أعر فيها الا على روبل من فضة ، هو كل ما أملك الى أن أقبض راتبي بعد عشرة أيام طوال . فما تظنيننى قد فعلت بذلك الروبل الفرد ؟ لقد بكرت من غدى الى حانوت للعطور الباريسية ، فاشتريت لها عطرا وصابونا معطرا ، ورحلت أذرع الطريق تحت نوافذ بيت معبودتى الغافلة . .

وانى لأعجب من نفسى اليوم لماذا اشتريت ذلك العطر ، وذلك الصابون ، فلم اجترى على اهدائهما الى معشوقتى . . ولكن كل ما أعلمه انى بقيت شهرا ونصف شهر لا أمارس شيئا من مهام الحياة وأمورها سوى تعقبها أينما ذهبت فى عربة اكثريها ، حتى ساءت أحوالى . .

وأخيرا يا يمامتى ، وبغير مقدمات ، طار حبها عن قلبى ذات صباح ، كما حط عليه من قبل ذات مساء . . وارتفع عنى ما كان يرهقنى من سحر الساحرة الحسناء . . .

وهذا يا عزيزتى ما ترديت فيه يوما من الرعونة ، ولكن هذا عهد مضى يا أختاه ، مع ما مضى من أيام الشباب .

مقار ديوفشكين

زعانع الأنواء

٢٧ يولية :

عزيزى السيد مقار :

لم تعد براهينك تقنعنى يا صديقى ، وبت أرانى مخطئة فى رفض ما عرض على من أعمال شريفة . . ولا سيما بعد أن أصبحت تتعلل لانقطاعك عنى بأن طبيعة حبك لى تفرض عليك تلك القطيعة . . وانما هو خوفك أن أثبتن الحقيقة وما صرت اليه من ضيق شديد . .

لقد زعمت لى أنك تنفق على فى مرضى وحوائجى من فيض مال كنت تدخره ، فاذا أنت لم تكن ذا مال مدخر ، وانما دفعك عطفك وحنانك أن تقتصر على نفسك كل التقدير فى سبيل رفاحتى ، وان ما زعمته مالا مدخرا كان مرتبك وقد تقاضيته عدة شهور سلفا ، فأنت الآن ولا مورد لك على الإطلاق . .

وقد تحققت أنك بعثت كسوتك الرسمية أثناء مرضى لتدفع ثمن دوائى ، فبت خلق الثياب ، تطل أصابع قدميك من حذائك . فأزريت بنفسك ، وجوعتها فى سبيل استبقائى ونعمائى . .

ألا أنك قد خنت عهد صداقتنا بهذا الخداع الفاضح . . ! ان ذكرى ما استهلكت من هداياك من الحلوى والثياب والنزهات والدواء تنوش قلبى ندماعلى ما كلفتك من ضرورات الحياة . . والمسرات التى طالما اثلجت بها صدرى قد انقلبت مدعاة للغم والاسف . .

أفهل هبطت الى هذا الدرك من الزرابة بنفسك يا مقار ، وانت الرجل الفاضل الذى أجمع الكافة على توقيره . . ؟ أهكذا تجعل من نفسك هزأة العالمين . . ؟
ألا ما أهول ما جرته عليك صداقتى الرعناء . . ! وكيف

زعازع الانواء

أغفر لنفسى ما سببته لك من سوء المنقلب .. ؟
ألك يد بتصور ما انتابنى من الألم الشديد حين قالت لى
فيدورا أن الشرطة عثروا بك ثملا مطروحا فى الشارع فى
الهزيع الاخير من الليل .. ؟

لقد أصابنى الدهول لأول وهلة ، وان كنت قد توقعت أمرا
خارقا ، لانك تغيبت عن بيتك أربعة ايام سويا .. ولكنى لم
أكن أتوقع أن يعثر بك الشرطة مخمورا وأنت رجل الفضل
والنبل والاستقامة التى تضرب بها الامثال ..

ماذا عسى أن يقول رؤساؤك لو عرفوا هذا الامر .. ؟ وهلا
تذكرت ما طالما كررته على سمعى من شيوخ أمر صداقتنا
على السنة جيرانك اجمعين ، حتى سخروا من غرام كهل فى
سبك بفتاة مثلى .. ؟ ماذا عساهم اذن قائلين بعد هذا
الذى حدث لك .. ؟

ثم ما حكاية شجارك مع الضباط .. ؟ ولماذا تكتم عنى ما
يحدث لك ويحزنك من الامور .. ؟
اكتب الى يا صديقى ولا تضن على بشىء من أخبارك اذا
كنت لا تزال تقدر صداقة ..

المخلصة لك على الدوام
بربارة

٢٨ يولية :

عزيزتى الغالية بربارة .. !

أما وقد عاد كل شىء الى نصابه الآن ، فليست أرى ما يمنعنى
من مصارحتك بما كنت أخفى عنك ..

لقد تساءلت عما يخوض فيه الناس من شأننا ، ومن شأنى
أنا على الخصوص ، وقد رأوا تغير حالى .. فاعلمى اذن أن
قالة الناس فى شخصى لا تهمنى ، وان رؤسائى فى الديوان لا

زعازع الانواء

علم لهم بشيء .. فلا يكربنى الآن الا تخرص الناس عن صداقتنا ، والخوض فيها بما ليس منها ..

لقد كانت ربة البيت لا تكف عن الصياح والصخب ، حتى أدبت اليها جزءا من متأخر الكراء - هوتلك الروبلات العشرة التى بعثت بها الى مشكورة - فخفت صوتها حتى صار زمجرة مكتومة لا آبه لها كثيرا ..

واما جيرانى فلا يتعرضون لى بسوء .. وليس يهمنى الا يحترمونى ، فتقديرك انت هو كل ما أحرص عليه يا عزيزتى ! ولست أكتمك أن ديونى الكثيرة اتثقل على صدرى ، وان رثاثة ثيابى تخزبنى .. ولكن هذا كله ليس شيئا مذكورا ، ما دمت انت بخير ، ولعل الله يحدث لنا فرجا ..

لقد بعثت الى امس بنصف روبل .. فما أشد ما آلمنى هذا النصف روبل وحز فى قلبى .. هل صرت حقا الى هذا الموقف النكد .. ؟ هل انقلبت الآية شر منقلب ، حتى بت أنا الذى أتلقى منك العون ، لا الذى يقدمه إليك كما ينبغى للولى الحميم .. ؟ وداعا يا يمامتى .. واتم الله عليك العافية ، وسأحدثك فى خطاب آخر عما وقع لى مع الضباط ..

مقار ديوفشكين

٢٨ يولية

أختى فارينكا

لقد أثرت كوامن أشجاني بما قلت لى أيتها الاخت عن حقى فى حبك ، وان ذلك الحب ليس من الرعونة والخبال فى شيء .. وهو كلام جميل .. ولكنه محض كلام .. أما قلبك يا فارينكا فما اراه يقول ما ينطق به لسانك ، وانى من هذا على يقين .. وقد كان هذا الحب الذى أغالبه سببا فى كل ما وقع بينى وبين الضباط من مهازل لا أحب ذكرها ، لولا الحاحك فى السؤال تعلمين يا فارينكا انى سلخت شهرا لا أجد ما أعيش به ،

فكنت أتلسل الى البيت تسللا واخفى وجهى عنك متعللا بكثرة العمل ، ولولا ان ربة البيت تربصت بى وفضحتنى لما علمت الحقيقة ..

وما كان صياحها ليزعجنى ، لو لم تعرف المرأة السليطة - ولا ادرى كيف عرفت - ان بينى وبينك صداقة ومودة ، قراحت تندد بنا ، وتنعتك على ملأ السكان بأقبح النعوت . . حتى استولى على الذهول لما سمعت ، ورحت أصم أذنى بأصابعى فزعا واستنكارا . . ولكن سائر السكان لم يصموا آذانهم بأيديهم كما فعلت . . بل فتحوها وأرهفوها ارهافا شديدا لتلقى تلك الارجيف . حتى بت لا أدرى أين أخفى وجهى عن هؤلاء الناس الذين صدقوا ، لسوء دخيلتهم ، ما قيل لهم . .

وزاد الطين بلة اننى سمعت بعد ذلك من « فيدورا » ان شخصا لا خلاق له زار حجرتك وأساء الى كرامتك وحيائك بما سولت له نفسه أن يطلبه اليك ويساومك فيه . . وانى لمدرک يا عزيزتى مدى ما ألت له بسبب تلك الاهانة التى مست سويداءك . . فكان ذلك النبأ هو القشة التى قصمت ظهر البعير . . فتداعت مقاومتى تحت عبء الاحزان ، فان كل شيء كان هينا عندى ، الا أن يمسك سوء من قريب أو بعيد وكأنما اصطلحت الطبيعة مع الناس على توهين عزيمتى . . فأمطرت السماء وانتشرت الوحول فى كل موضع ، ونفذ الماء من ثوبى الخلق وحذائى البالى . .

وفيما كنت متجها الى البيت فى تناقل وانتقباض ، قابلنى « اميل » الموظف السابق فى ديواننا ، فمشينا نتناقل أخبار متاعبنا برهة ، فهو رجل مسكين لا مورد له بعد فصله من الخدمة

زعازع الانواء

وفي شقائه صدى لشقائي العظيم في ذلك اليوم ..
وانتهى بنا المطاف الى هجانة وماخور ..

ولكن أى ارب لك في الاطلاع على صورة مفصلة للاوزار
والحمات التى تمرغ فيها صديقك المسكين فى ساعة ضيق
وضعف ..

لقد دامت هذه الخطيئة ثلاثة أيام سويا ، دفعنى أميل فى
نهايتها - وكنا نتذاكر همومنا بين كؤوس الخمر - الى الانتقام
مما لحق بى من اهانتك والاساءة اليك والى شرفك . فاندفعت
تحت سورة الخمار الى بيت ذلك الضابط السفيف ..

ولست اذكر الآن شيئا مما حدث على وجه التفصيل ،
ولكنى اذكر فقط ان البيت كان غاصا بالناس ، ومعظمهم من
الضباط ، واننى اندفعت فى الكلام طويلا ، الى أن القوا بى
من أعلى الدرج ، فتدحرجت ، حتى بلغت أرض الشارع ..
وعلى هذه الحال عثر بى الشرطة

ولكنى لم أكرث لهذا الذى وقع لى ، لان شيئا فى الحياة
لا يهمنى بعد راحتك وسلامتك من سوء ، ومن السنة السوء
فاذا كنت قد أثمت يا صاحبتى ، فبسببك ، وبسبب حبيبى
لك وتعلقى بشخصك الحبيب ، وحرصى على كمال احترامك ،
وصيانة كرامتك بسياج متين .

وليك الحميم
مقار ديوفشكين

٢٩ يولية :

سيدى العزيز :

قرأت خطابيك اللذين كتبتهما الى أمسى .. فاستولت على
دهشة شديدة : فاما أن تسكون قد كتمتنى جانبا كبيرا من

زعازع الانواء

الحقيقة ، واما أن يكون اضطرارك النفسى أعنف كثيرا مما
قدرت ..

فأتوسل إليك ان تحضر لزيارتى اليوم .. تعال لنتغدى معا
فى غير تكلف ، فان لى معك حديثا طويلا ، ولا سيما عن نمط
حياتك وعلاقتك بربة البيت ، وهى أمور لاتخوض فيها فيما
تكتب الى من الرسائل .. كأنما تريد أن تتجنب ذكرها عمدا .
وداعا يا صديقى ، واعلم أنه لابد من حضورك على كل حال
ولعل الاوفق أن تتغدى معنا كل يوم ، ففيدورا طاهية ماهرة .
بريابة

أول أغسطس :

أختى بريابة العزيزة .. !

أراك سعيدة بما هيأته لك الفرصة السانحة من اظهار
ما تنطوى عليه جوانحك من عرفان الجميل والعطف الكريم ،
ولكن لا ادرى لماذا تلحين فى نبش هفواتى التى انحدرت اليها
فى الماضى .. ؟

لقد هفوت وأثمت ، بيد أنى أتألم كثيرا حينما أسمع ذلك من
بين شفتيك انت من دون الناس جميعا .. وأرجو ألا تفضبنى
لهذا الذى أقول لك ، فان قلبى يتمزق ألما ، والفقراء يا يمامتى
قوم فيهم حساسية شديدة لما يمس كبرياءهم المرهفة ..
وفيهم حذر وسوء ظن بالدنيا وبالناس . فالرجل منهم يصيخ
السمع كلما رأى قوما يتهامسون ، خشية أن يكون موضوع
همسهم وتغامزهم . واذا جاد عليه الناس بشيء من المال ،
أجازوا لانفسهم أن يتطفلوا على حياته الخاصة ، فليس ما يعطونه
صدقة خالصة فى الواقع ، وانما هو أجر « الفرجة » على رجل
فقير من عباد الله المساكين ..

فهل تعجبين بعد هذا يا اختاه لما يداخل الفقير منا من

زعازع الانواء

التوجس والارتياب وسوء الظن بالناس ؟ فهو يحس كما لو كان
أولئك المتخمون يهمون بتعرية جسده من كل ما يستره . .
فهل يلام على تمسكه بالحياء ، وبستر ما أمر الله ان يستر ؟ ؟
ألا ان خلات الناس وآلامهم عورات لا يحل لاحد ان يطلع
عليها . . وقد ظهرت سواتي اليوم للناس ، فكدت اموت
خجلا . . لقد تبينت أن كوعى كان يطل من كم سترتي البالى
وأنا جالس الى مكتبي فى الديوان . . وان أزرارها كانت تتراقص
مدلاة من خيوطها الواهية التى لا تكاد تمسكها . .
فلما عدت من الديوان ، وقصدت الى بيتك للغداء ، رأيت
جميع سكان بيتنا فى النافذة ، يشيرون الى بأصابعهم
هازئين ، وسمعت صاحبة البيت تنعتك بأعلى صوتها نعتا
بذيئا . . ووصمتنى بالشيطان الذى يغرى فتاة ويدنس شرفها
فى سبيل متاع شيخوخته الفانية . . فجعلت الدنيا تدور
من حولى ، كأنما أعانى سكرات الحمى ، وقد أعيثنى الحيلة
للخلاص من هذا المأزق . .
رباه . . ! أين أين المفر ؟ !
لقد ضقت ذرعا بكل شيء ، وكفرت بكل شيء ، ولست أرى
لى مخرجا من هذا البلاء الشديد . .

مقار ديوفشكين

٢ اغسطس :

عزيزى السيد مقار . .

لا يحزبك الامر يا صاحبي ، فما عقدة الا ولها فرجة مثل
حل العقال . . وقد وفقت فيدورا الى كمية من الاعمال
لى ولها ، سيأتينا منها أجر حسن ، عسى أن يقضى على كل
أثر لضائقنا الخائقة . .

لا تلق بالا الى تخرصات ربة الدار ، وتعال لزيارتنا وتناول

زعازع الانواء

الطعام معنا ، فهو أجدى عليك وأقصد لنفقتك ، والقصد أولى من القرض .. لان القرض تأجيل بلاء وليس حسم داء .. وأوصيك ألا تسترسل في سوء الظن وتوهم المكائد والشماتة ، فان ذلك الوهم خليق أن يزيد نفسك اضطرابا ، من حيث تنشيد الامن والسكينة ..
انى أنتظر حضورك اليوم ، فلا تتخلف ..

بربارة

٣ أغسطس :

ملاكى الرقيق بربارة .. !

أبادر بأن أزف اليك يا نور حياتى بشرى بارقة من الامل ، تراءت لى ، وان كنت قد نصحتنى في خطابك أمس ألا أجا الى القروض ، لانها في رأيك ياملاكى دائرة خبيثة مفرغة لاتحل المضلات ، وانما هى تؤجلها لتزيدها تعقيدا واستمضاء .
ان لى زميلا في الديوان ، يجاور مكتبه مكتبى ، اسمه «اميليان ايفانوفتش » وهو مثلى من أقدم موظفى الديوان ، ولكنى كما تعلمين رجل منطو على نفسه ، فلم تزد العلائق بيننا على تبادل التحية والسلام ، وقد اقول له في الحين بعد الحين ..

— اعطنى مبراتك يا عزيزى متفضلا مشكورا ..

فلديه مبرة من الصلب ليس كمثلها مبرة .. ولكن الصلصلة بيننا في ثلاثين سنة لم تزد يوما على هذه المجاملات الرسمية ، وان كنت أشعر في قرارة نفسى أنه يضم لى الخير . وبالأمس قرأ في وجهى علائم الهم والكدر فسألنى ما بى ، فقلت له أسباب ضيقى ، اجمالا لاتفصيلا بطبيعة الحال . لان الشجاعة لم تواتنى على مصارحته بكل متاعبى الباهظة ، فقال لى اميليان :

— لماذا اذن لا تعقد قرضا تصلح به شأنك .. ؟ ان «بير

بتروفتش « يقرضنى بفائدة معقولة فالجأ اليه ، فهو رجل طيب ..

فقلت فى نفسى : لعل هذا بشير الخلاص من ضيقى الراهن فأسدد دينى لربة البيت ، وأقدم لك شيئاً من المعونة ، وأجدد ما خلق من ثيابى .. فقد صار ملبسى مدعاة للخزى المقيم .. فاذا غضضت الطرف عن نكات الرقعاء من الموظفين ولواذع تعريضاتهم وغمزهم ، فما يسعنى ان أغض الطرف عن مدير الديوان .. فقد يمر سعادته بمكتبى ويرى سوء مظهرى الذى لا يليق بكرامة مركزى فى الدولة ، والكرامة ولياقة السمات أهم شىء فى منظر مثل لهؤلاء الرؤساء العظام .. ولا أحسبه سيقول شيئاً ، ولكننى خليق أن أموت خجلاً تحت وقع نظراته الناطقة بالاشمئزاز والاستياء ..

وكان هذا الخاطر لوحده كافياً للقضاء على كل تردد ، فجمعت شجاعتى فى يدى ، وتوجهت الى مكتب « بير بتروفتش » فوجدته مشغولاً بالحديث مع شخص آخر ، فاقتربت منه ووقفت الى جواره من الجانب الآخر ، وجذبت طرف كفه فى لطف ، فالتفت نحوى ، فقلت له همساً اننى بحاجة الى ثلاثين روبلاً ، ويبدو أنه لم يفهم مرادى لاول وهلة فشرحت له الامر ، فأنشأ يضحك ، ولم يجبنى بشىء .. فلما رأيت سكوته وصمته بعد أن ضحك ماشاء الله ان يضحك أعدت عليه الطلب ، فقال لى :

— ألدك رهن عينى ؟

ثم « غاص » فى أوراقه وكتاباتة دون ان ينتظر منى جواباً على سؤاله ، غير ملق الى نظره ، فاضطربت وتضاءلت بعض الاضطراب وبعض التضائل ، وقلت بصوت مختلج :

— كلا يا بير بتروفتش ، ليس عندى رهن ..

ثم أخذت أؤكد له اننى سأفى بدينى متى قبضت مرتبى ،

مقسما له على ذلك بأغلظ الايمان ..

وناداه مناد في هذه اللحظة فخرج ، وانتظرت حتى عاد الى مكتبه ، فجلس وانصرف الى برى قلمه بعناية وكأنه لا يحس لى وجودا ، فأعدت الكرة عليه في توصل ، فتصامم عن كلامى ، وكأننى لم أقل شيئا ، فبقيت واقفا بين يديه لحظة لا أدري ماذا أصنع ، ثم عولت على إعادة المحاولة على يأس من الفلاح ، فجذبت كفه مرة اخرى ، فلم يلتفت الى ، وانصرف الى الكتابة بعد ان نفخ آثار برى القلم عن أصابعه وثيرابه ، فانصرفت ، وما كان لى الا أن أنصرف بعدها الذى جرى بيننا في غير طائل رأيت يا أختاه ؟ أولاء هم الغرباء ، قوم كرام على أنفسهم ، ونحن عليهم غير كرام .. فلا يدري الفقير منا كيف يخاطبهم أو يشعرهم بحاله أو يعطفهم عليه .. فنحن أهون عندهم من أن نحرك فيهم ساكنا أو نشغل لهم بالا ..

ولما عدت الى مكتبى وقصصت ما حدث على « اميليان » ضحك كثيرا ، وهز رأسه وسكت .. ثم راح يسرى عنى ويفتح أمامى أبواب الامل ، فهو مثلى رجل فقير ، ووعد بتزكىنى عند صديق له يسكن حى « فيبورج » يقرض الناس .. بربا معقول ، وسأذهب اليه من غدى .. فما رأيك يا أختاه .. ؟ ألسنت على حق .. ؟ وهل من هذا السبيل بد أو عنه مندوحة ؟ فهذه ربة البيت تتوعدنى بالطرد اذا لم أؤد لها حقها المتأخر وأجرها الممتول ، وهى تأبى منذ اليوم أن تقدم لى طعام العشاء نسيئة كما كانت تفعل من قبل واما نعلای يا أختاه فحالهما شر حال . واما سترتى فقد كثرت فيها الخسروق ، وطاح البلى بنصف أزرارها المعدنية الصفراء .. حتى ما أدري كيف أواجه

نظرات رؤسائي لو رأوا كيف بت أبدو . . . انها لتكونن اذن
كارثة ليس عنها من محيص .

مقار ديوفشكين

٤ أغسطس :

عزيزي مقار

أستحلفك بحق الله عندك يا مقار ان تدبر قدرا من المال
على وجه الاستعجال ، كائنا ما كانت الوسيلة . .
وما كنت لا طلب اليك هذا الطلب ، أو استأديك العون
وأنت في هذه الظروف التي أعلمها علم اليقين ، لولا أنني ألقى
نفسى في موقف لا يطاق معه الصبر ولا تنفع فيه الحيلة . .
فلا أرانى قادرة بعد الآن على التلبث في هذا البيت الذى أسكنه
بحال من الاحوال . .

تصور يا صديقى اننى حظيت اليوم بزيارة من رجل غريب
لا أعرفه ، متقدم فى السن حتى ليكاد يحسب فى عداد الشيوخ
ترصع صدره نياشين ذات عدد وبريق فأدهشتنى هذه الزيارة
التي لم أعرف لها سببا . . وكانت فيدورا فى السوق تشتري
حاجاتنا ، فأنشأ الزائر المجهول يسألنى عن أحوال معاشى ،
وشواغل حياتى ، ثم انتقل - قبل أن أجيبه على أسئلته -
الى مكاشفتى بحقيقة شخصيته فاذا هو عم ذلك الضابط الذى
زارنى يوما ليراودنى عن شرفى وأنحى على ابن أخيه الشاب
باللائمة الشديدة ، واستنكر تشهيره بى فى الحى كله بما أثاره
من فضيحة بسلوكه الشائن ، الذى أملاه عليه طيش الشباب
ثم عرض على حمايته ، زاعما أنه يشعر نحوى بعطف أبوى ،
وحنان والدى صادق يدفعانه الى رعايتى ومساعدتى . .
فتخضب وجهى بحمرة الحياء ، وحررت فى تأويل ما يقول ، فلم

أعبر له عن شكرى ، فجذب يدى عنوة ، ثم داعب بأنامله العجاف ذقنى ، وهو يطرى سحر عيني ونضرة حسنى !! ثم صاح منتشيا حينما اكتشف أن لى فى وجنتى « غمازتين » وهم أن يقبلنى قهرا ، قبلة يزعمها من فيض الابوة العطوف ودخلت فيدورا فى هذه اللحظة ، فاضطرب وتراجع ، وجعل يكرر فى تلثم ظاهر انه يقدر وداعتى واستقامتى .. وانه يرجو ان أطمئن اليه وأثق به .. ثم انتحى بفيدورا جانبا وحاول أن يدس فى يدها شيئا من المال متعللا بتعللات عرجاء ، ولكن فيدورا أبت بطبيعة الحال أن تقبل منه شيئا ، فانصرف على وعد بتكرار الزيارة ، حاملا الى قرطا من الذهب أزين به أذنى الجميلتين ..

ولم ينس ان يوصينى قبل انصرافه بتغيير مسكنى ، فانتقل الى مسكن آخر خير من هذا ولا يكلفنى أجرا .. ثم قال انه يعرف « آنا فيودروفنا » وانها ستأتى لزيارتى عما قريب .. فما أن سمعت منه هذه العبارة الاخيرة ، حتى تكشفت لى الحقيقة بخذافيرها ، وادركت أن هذه القوادة قد عادت الى القاء شباكها حولى ، ولا حول لى .. فانفجر غيظى المكتوم ، وجعلت أنتفض وأسب الرجل وأصرخ طالبة اليه الخروج من بيتى ، فجرته فيدورا الى الباب جرا ..

ان هذه المرأة قد دبرت لنا هذا الشر ، وما كان الرجل ليعرف طريقنا لولاها .. فلا تتخل عنى الآن يا صديقى بحق السماء وأخرجنى من هذا المأزق .. اقترض .. اقترض مالا باى شكل من الاشكال .. حتى ننتقل من هذا البيت الى موضع لا تعرف فيه « آنا فيودروفنا » مكانى . ولا يكفى لهذه النقلة أقل من خمسة وعشرين روبلا .. أتوسل اليك الا تحجم عن

زَعَاذِعُ الْاَنْوَاءِ

شئ في سبيل الحصول عليها . فلا تهولنك فائدة الربا ولو
كانت أضعافا مضاعفة ، أقدم على أي شئ ، وأقبل كل شرط
يفرض عليك . . ولكن لا تتخل عنى ولا تخذلنى يا صديقى
الوحيد وأملى الفريد . .

بريارة

أين المخرج؟

٤ أغسطس

يمامتي وعزيزتي العزيزة !

انى أترنج تحت هذه الضربات المباغثة التى أحس بها تتواكب فوق رأسى ، فتسحق مقاومتي وتشل وجدانى وتمحق روحي .
ماأشقانى بالحياة بين هؤلاء الناس الذين تموج بهم المدينة الكبيرة ، متسكعين ، متطفلين ، شامتين ، لايفهمون الألم ، ولا يعرفون الرحمة . انهم ليدفعوننى الى اليأس . كلا . بل الى ماهو شر من اليأس : الى الجنون أو الانتحار ، أو الكفر والاستهتار .
ماأشقانى بما كتبت الى ، فانى لافضل الموت فى أبشع صورته على القصور عن معونتك ، وقد طلبت هذه المعونة فى ألم يفتت الاكباد . .

بل انى أشقى شقى ، حتى اذا وسعت طاقتى اسعافك بما تريد من العون : فلو لبيت طلبك ، لكان فى ذلك بعدك عنى ، كما يحلق العصفور بجناحيه فى الفضاء فلا تصل اليه يد ولا يقربه منك الا أن يعود اليك ، وأنت تريد من ذهابا لارجعة فيه . .
ولكن ما حيلة العصفور وقد اجتمعت على عشة البواشق والصقور ، تريد أن تهلكه وهو راقد فيه .

وتلك يا حياتى هى شقوتى المزدوجة وحيرتى الرائنة . . فلماذا تلقين بى فى هذه المحنة ؟ ولماذا تشقيننى وتشقين نفسك ، قائلة : لن تجدى فى البعد عنى الا الوحشة ، وانت كالأطفال لاغناء لك عن راع يسهر على صحتك الرقيقة والا اضرت بها بما فى طبعك من تهور وقلة اكتراث . وما أحسبك الا تنوين الانكباب فى حياتك على الحياكة والتطريز ، حتى تنوئى بذلك العمل الشاق .

فارينكا ! فارينكا ! أعدك أن أكون لك خير راع ومعين ، ولكن لا تتركى جوارى يا أختاه ! ودعى التفكير فى العمل ، فساقوم أنا

بكل ما يلزم لمعاشك : سأعمل في نسخ المؤلفات ليلا . سأطرق أبواب المؤلفين وأحملهم على تكليفى بنسخ كتاباتهم حملا ، لانهم بحاجة الى نسخاخين من ذوى الخط الحسن . أنا من هذا على يقين فلا يداخلك فى ذلك شك .

وثقى أيضا اننى . سأقترض من المال ما يكفىك الى أن أجد هذا العمل الاضافى السخى ، أتقولين فى خطابك اننى لا ينبغي أن أتراجع أمام فداحة الربا ؟ ثقى اننى لن أتراجع أمام شىء مهما كان فى سبيل تدبير المال ، ولكن أستحلفك ألا تفارقينى والا مت كمدا ، فما حياتى بغير جوارك؟ أنت لى كالشمس للنبات والماء للحوت . . .

سأطلب أربعين روبلا قرضا أصلح به شأنك وشأنى ، وهو ليس بالمبلغ الكبير . أترينه كثيرا ؟ أتظنين الحصول عليه يسيرا ؟ أتريننى - فى نظرك - أوحى بالثقة ، بحيث يطمئن المرابى الى كلمتى ، فكلمتى هى الضمان الوحيد الذى أملك تقديمه لقاء هذه الروبلات الاربعين . . . أعنى هل يدل منظرى وشكلى العام على اننى أهل للثقة ؟ حاولى يا ملاكى أن تتذكرى أول لقاء لنا وخبرينى هل تدل النظرة الاولى الى على رجل يبشر بالخير ويستأهل الاحترام والتقدير . ولا تكتمنى رأيك الحق ، فانى أرتعد فرقا من الفشل فى هذا المشروع . . . حتى بات الوسواس لا يفارقنى فى غدوى ورواحى .

وقد اعتزمت أن أخصص من هذه الروبلات الاربعين خمسة وعشرين روبلا لما يلزمك يا فارينكا ، واعطى خمسة أخرى لربة بيتى حتى أكف أذاها ، وأدبر شأنى المضطرب بما يتبقى منها . والحق انه كان ينبغي أن أدفع الى ربة البيت أكثر من هذا المبلغ ، لولا كثرة ما يلزمنى لزوما عاجلا ملحا ، فلا بد لى من حذاء

جديد يكلفني روبلين على الاقل، فلست واثقا ان حذائي الحالي قادر على الصمود الى الغدا! فالله وحده يعلم كيف سيتسنى لي الوصول غدا الى الديوان بهذا الحذاء المتداعى . . أما رباط العنق العتيق القدر فلا أظننى بحاجة الى شراء بديل عنه ، مادمت قد وعدتنى بعمل رباط لي من بعض أثوابك القديمة . ولكن لا غنى لي عن شراء أزرار معدنية جديدة، بعد أن ضاع أكثر من نصف أزرار كسائي . . واني لا ارتعد فرقا لمجرد التفكير في احتمال وقوع نظر سعادة المدير العام على شخصي وقد أصبح بهذا القدر من الزرارية والابتذال! ماذا عساه أن يقول عني وأنا الرجل القديم العهد بالخدمة ، المشهور بالرزانة والاحتشام ؟ . . لن يقدر لي أن أسمع تعليقاته ، لاني سأكون قدمت خزيا لمجرد نظره الي .

ويبقى ياملاكي بعد هذا ثلاثة روبلات، أعيش بها سائر الشهر، واشتري نصف رطل من الطباق ، فأنا يا حياتي لا أستطيع الحياة بدون تدخين . . وها قد انقضت تسعة أيام لم أرفع فيها غليوني الى فمي . .

اني ضعيف أمام عادة التدخين، وكان بوسعي أن أفكر في شراء الطباق دون علمك ، ولكنني كنت خليقا أن آلم لهذا الخداع . . . أما يكفيني أن تكوني في ضيق وعوز ، وأسرف أنا في ارضاء ملذاتي التافهة . . حتى أضيف الى هذا الضعف وصمة الاختلاس ؟ . . لهذا يا حياتي حرصت على مصارحتك والاعتراف بين يديك بذلتي حتى لا ينغص على تأنيب الضمير يقظتي ومنامي . أواه ! اني لاجد نفسي الآن في موقف لم أقف مثله من قبل ، في كل ما مر بي من ظروف الحياة وشدائدها . . فربة البيت تلاحقني بازدرائها ، ولم يبق لي احترام في نظر انسان . . . وصارت الضائقات والازمات والديون تنوشني من كل جانب في هذا البيت الملعون . .

أما في الديوان فالامر أدهى وأمر • فماتعودت من زملائي ولا سيما الشبان منهم كل عطف وتقدير ومودة ، قبل أن أصل إلى درك بؤسى الراهن • • فغير غريب أن يتفاقم الامر الآن • لذلك صرت حريصا على أن أتسلل إلى مكتبي تسلي اللص ، حتى لا تقع على هيئتي عين ما استطعت إلى ذلك سبيلا • •
 فياويلتي لو رفض المرابى اقراضى هذه الروبلات الاربعين! لا طاقة لي بالتفكير في هذه الكارثة ، ولهذا أوتر ألا أشغل ذهني بها • • فلو وقع هذا الحادث الجلل ، لطواني الردى قبل أن أجسر على العودة إلى ما ينتظرني في البيت من عذاب ونكاية ، وإلى ما ينتظرني في عينيك من نظرات الألم والعتاب •
 لقد أطلت عليك • • واننى ينبغى أن أحلق لحيتى ، فذلك أليق وأدعى للثقة والاحترام • •
 رعاك الله ، ووفقنى ، والسلام

مقار ديوفشكين

٥ أغسطس

عزيزى العزيز مقار • •
 ليترك لا تمتحن نفسك بكل هذا العذاب الذى تلوكه وتجتره مرة بعد مرة ، فلأنت أشد على نفسك من أحداث زمانك الشداد • •
 هذه ثلاثون كوبكا أبعث اليك بها ، هى كل ما استطعت تدبيرها لتصلح بها شأنك إلى غد • • أما نحن يا صاحبي فلم يبق لدينا شيء ، وما أدرى ماذا نحن صانعتان غدا ، فليت غدا لا تشرق شمسها أيها الصديق !
 الموقف دقيق نكد ، ولكن أى جدوى فى اجترار الهموم ؟ لقد حاولت فأخفقت ، فماذا كان فى وسعك بعد هذا ؟
 ان فيدورا تؤكد لى أن الامر ليس كما تتصور من السوء

والضنك ، وهى تزعم أن بقاءنا حيث نحن أمر ممكن ، بل هى تذهب فى زعمها الى التهرين من جدوى النقلة الى بيت آخر ، فان مثل « آنا فيودروفا » قيمة أن تتعقبنا وتعرف مثوانا الجديد ، فهى واسعة الحيلة قوية المراس ولكنى ما زلت أرى بقائى فى هذا البيت غير لائق ولا مستساغ ، ولولم أكن مكتئبة النفس لكتبت إليك عن هذا الامر فى شىء من الاسهاب .

ان لك يامقار لخلقا عجيبا حقا ! فما أشد اكترائك لهموم الناس ، واهتمامك لآلامهم . . . وتلك خلة تورذك موارد الشقاء ، وتجعلك على الدوام فى عذاب مقيم . . .

انى أعيد الآن تلاوة خطاباتك جميعا ، فما أشد ما يروعنى ما تبديه من العناية بشأنى والاهتمام لهمومى . . . حتى لتنسى أمر نفسك وخاص شأنك ، فساعات حالك وبت فى موقف لا مخرج لك منه الا بعناية من السماء تلحظك بها على غير انتظار . . . ولا شك عندى انه مامن انسان لا يرى فيك طيبة القلب بصورة ماثلة . . . ولكنى أراك مفرطا فى الطيبة ، مسرفا فى النبيل والاريفية . . . فبعض هذا يا صديقى العزيز .

هذا نصح صديقة تخلص لك الود وتريد بك الخير . . . وانى لك شاكرة ، ولا ياديك عارفة ، وبفضلك مقرة معترفة . . . بل ان احساسى بأفضالك يسبب لى حيرة شديدة ، فلست أدري كيف أنجزيك احسانا باحسان ، وليست لى بذلك الجزاء يدان . . .

فانظر أى ألم يحز فى قلبى وأنا أعلم الى أى مدى بلغت بك الآلام والمتاعب والازمات ، واننى أنا سبب هذا البلاء عن غسير قصد . . . فقد كنت ذا سرور فاهية ، فصرت بسببى الى الفاقة والدين الثقيل . . . وكنت ذا سمت وزينة ، فصرت بسببى الى المهانة وسقوط الهيبة . . .

لقد عنيت نفسك بأمرى، فلم يكن لك هم الا أفراحي وأتراحي
 واوجاعي وشجن ما غبر من عمرى وما حضر . فلو عنى كل
 انسان نفسه بشأن الغرباء عنه كما عنيت نفسك بشأنى ، لكان
 خليقا أن يجر على نفسه كلاكل البلاء من حيث لا يحتسب . .
 رباه ! كم خشيت عليك أن يصيبك مكروه حين عرجت على
 بيتى بعد خروجك من الديوان لقد كنت شديد الشحوب .
 ظاهر الجزع ، تكاد تنهالك من فرط الاعياء . . . اشفاقا على
 انا من الصدمة القاسية ، لانك لم توفق فيما حاولت من القرض
 فلما قلت لك اننى غير آبهة ، وأخذت اضحك امعانا فى اظهار
 استهانتى بالخطب ، سرى عنك من فورك .
 فأتوسل اليك يا عزيزى ألا تروع نفسك من أجلى ، وثق أن
 كل شدة الى زوال ، وكل ضيق الى فرج . . . فانه يستحيل على
 أى امرئ ان يعيش كما تعيش انت ، موزع النفس ، مقسم
 الفؤاد ، معنى بما يصيب سواك كان المصاب مصابك واشد وفعا
 فثب الى الهدوء يا صديقى ، ولا تكثر لشانى الى هذا الحد
 الاليم

برباره

ه أغسطس :

يمامتى الصغيرة فارينكا !
 الحمد لله انك قد تلقيت فشلى فى الحصول على المال بهذا
 التهوين ، فقد خشيت ان يقس عليك النبا موقعا سيئا . . واحد
 الله كذلك لانك قد عدلت عن هجر جوارى الى مكان لا أراك
 منه حين امسى واصبح .
 وقد شرح قلبى واثلج صدرى ما جاء فى رسالتك من تقدير
 جميل وفهم صائب لحقيقة مشاعرى نحوك . . . وما لمستته
 فى سطورك من اهتمام بسعادتى وراحة قلبى ، ونصحك لى
 بالثبات والجلد . ولكن خبريسى يا يمامتى من أين يأتينى الجاد

ونعلى مخروق ينفذ منه الماء والوحل كلما خطوت فى طريقى
خطوة . وكيف استطيع الذهاب غدا الى الديوان بهذا النعل
المنكود ؟ هذا ما يحيرنى ويقضى مضجعى ، وما احسبه حريا ان
يضىنى اى نسان كريم ويمحقه محقا .

ولكن هذا على فداحته كان قمينا ان يهون عندى لو انه
كان يعينى وحدى ، فانا رجل متواضع ساذج ، لا يضيرنى أن
اخرج بغير معطف ، وبغير قبعة ، وبغير حذاء فى هذا البرد القارس
فأنا أهل لاحتمال كل شئ ، ولكن ماذا عسى ان يقول الناس ؟
وماذا عسى أن تتخرص به ألسنة السوء ؟ فما الزينة واللباس
الحسن الا تقية اتقى بها الناس ، فمن أجل رضاهم أتجمل
ما استطعت ، ولو تركت لشأنى ما تجملت ولهذا ارانى
بحاجة الى حذاء جديد بأى شكل من الاشكال ، انقاذا لشرفى
وسمعتى من البوار .

ان الوقت لم يتسع لى أثناء زيارتك كى أفصل لك ماوقع لى
اليوم تفصيلا كافيا . فإله وحده يعلم كم قاسيت من الآلام وتحملت
من الاوجاع النفسية فى غضون ساعات هذا الصباح المشئوم .
ولا أراى مغاليا اذا قلت اننى لم أعان - وأنا الشقى المرزأ - مثل
هذا البلاء فى مدى عام كامل فيما مر بى من عمرى الحافل بالاحزان .
لقد صحت وغادرت البيت فى ساعة مبكرة جدا ، حرصا على
الفراغ من زيارة المرابى قبل موعد الديوان . وكان المطرينهم
ساعتئذ ، والاوخال تغطى وجه الطريق ، فالتفت فى معطفى
البالى ، ورحت أحث الخطى وأنا أقول ضارعا الى الله :

- رب اغفر لى خطيئاتي واكتب لى التوفيق فى هذا الطريق !
فلما مررت أمام البيعة رسمت على وجهى علامة الصليب ،
واستغفرت الله ذنوبى من قلب خالص ، واستأنفت سبيلى
منطويا على نفسى ، غارقا فى أفكارى ، لا أكاد أنظر الى مواقع قدمى .

وكانت الشوارع خالية من الناس فى هذه الساعة ، ومن لقيته منهم كان يبدو عليه الهم والكرب . ولاغرو ! فمن ذا الذى يسير راجلا تحت المطر وبين الاوحال فى ذلك الوقت الباكر من الصباح ، الا أن يكون شقيا منكودا ؟!

وعبرت بى فى الطريق جماعة من العمال عليهم ثياب ملطخة بالزيوت والشحم والاوساخ ، وليست أكفهم بأنظف مما عليهم من الثياب ، فحتك بى أولئك المناكيد حتى أوشكت أن أقع . وكأنما كنت أنتظر هذه الصدمة الحبيثة كى أفارق ما أخذت به به نفسى من الجلد والهدوء ، فاذا القلق ينتابنى ، واذا أنا أخشى مجرد التفكير فى ذلك المبلغ الذى كنت فى طريقى الى اقتراضه من ذلك المرابى . . .

وحين بلغت « قنطرة القيامة » انفصل عن حذائى أحد نعليه ، وما أدري كيف استأنفت سيرى بعد ذلك على هذا الحال الغريب . . . وما سرت خطوات معدودات حتى لقينى أحد الموظفين فى الديوان ، فجعل يصعد فى نظراته ، ويتأمل هيئتى الغريبة ، ثم هز رأسه أسى كأنه يقول :

— أفى هذه الساعة ينكب الناس على الشراب ؟

ثم انتابنى تعب شديد ، فتمهلتن قليلا حتى استرددت شيئا من قواى المنهوكة ، ثم واصلت المسير وأنا أتلفت حولى لعلنى أجد شيئا أشغل به خاطرى ، حتى لا تخوننى شجاعتنى فأعود أدراجى . . . ولكن عبثا ، فلم أجد لذهنى مشغلة غير حالى .

وكانت ثيابى قد اكتست بالاوحال ، حتى تناثر منها على صدرى ووجهى رشاش ، فلحقنى من ذلك خجل شديد ، بدد مقاومتى وأوهى جلدى . . .

ثم لمحت على البعد بيتا من الخشب أصفر اللون ، فقلت أمنى النفس وأهون عليها مشقة المسير :

— هذا هو أخيرا بيت مار كوف المرابى . . لم يبق عليه الا القليل . .

و كنت واثقا من البيت ، بيدانى أحببت أن أستوثق ، فسألت البواب ، وكان رجلا جلفا ، فأجابنى فى جفوة وفضاظة واقتضاب :

— أجل . هذا بيت مار كوف .

فلم آبه لغلظته ، وان كانت قد تركت فى نفسى أثرا سيئا . وقد جربت فيما مضى من عمرى أن من استبشر خيرا أفلح فى مسعاه ، ومن انقبضت نفسه لم يلق الا ما يحزنه ويسوؤه . . وقد أوقع ذلك البواب فى نفسى كآبة ، فبدا على التردد ، وقر فى ذهنى ان الرجل رافض طلبى لامحالة ، وقفزت الى خاطرى كل عوامل التشبيط ، فتذكرت أن الرجل لا يعرفنى ، فهو اذن حرى ألا يثق بى . . ولا سيما أن مظهرى لا يشجع على الاحترام . . وكاد التشاؤم يثينى عن الدخول ، لولا اننى قلت لنفسى : — دع المقادير تجرى فى أعنتها ، وليكن ما يكون ، وعلى أن أسعى وليس على ادراك النجاح . . . ولئن حاولت وأخفقت فقد أعذرت .

وهمت أن أدفع البوابة الصغيرة فى سكون وهدوء ، ولكن كارثة جديدة أفسدت على هذا العزم : فقد انبرى لى كلب صغير خبيث ، فجعل ينبح بكل قوته نباحا متواليا . .

ولا تحسبى مثل هذا الامر الصغير تافه الاثر ، فما أوهن هذه التوافه لعزمات الحائرين أمثالى !

وتوكلت على الله مستعيذا به ودخلت ، فاذا كارثة أخرى تنتظرنى وراء الباب : فقد كان المدخل مظلمًا ، فلم أتبين موضع قدمى ، وكانت وراء الباب امرأة عجوز تصب اللبن من قعب كبير

في آنية صغيرة ، فاصطدمت بها بغتة ، فطاح القعب من يدها
وتدفق اللبن منه على الارض ، فجعلت تعوى وتتفجع وتصيح
- هل أنت أعمى أيها الشيخ؟ ألا ترى ما صنعت ؟ ماذا تريد
هنا ؟

ثم تدفقت الشتائم من فمها مختلطة بالتأوهات والزفرات ...
وانى أقص عليك هذه التفاصيل عمدا ، لان أشباهها تحدث
لى على الدوام فى كل أمر أحاول قضاءه ، لسوء طالعى ... فما
من مرة من هذه المرات الا أوقعنى نحسى فى أحد أو فى شيء ما
كان ينبغى لى أن أقع فيه .
وجاءت على الضجة امرأة عجوز قبيحة الحلقة ، فبادرت اليها
سائلا :

- أهنا يقيم السيد ماركوف

فقالت على الفور

- كلا ...

ثم لما رجعت فى نظرتها الفاحصة قالت بعد تردد يسير :
- وماذا تريد منه ؟

فشرحت لها مرادى فى اختصار ، فنادت المرأة ابنة لها يا فطة
حافية القدمين وقالت لها بصوت أجش :

- نادى أباك ، فهو عند المستأجرين فى الدور الاعلى

ثم قالت لى :

- تفضل أيها السيد بالدخول

فدخلت ، فاذا حجرة لا بأس بها ، على جدارها صور كبيرة
الحجم ، مافيها الا صورة قائد أو أمير وفى وسط الحجرة منضدة

مستديرة وايوان للجلوس وأصيص من البلسم .

فلما تركتنى العجوز وحدى قلت لنفسي :

- أليس من الخير لك يا صاح أن تخرج الآن ، قبل أن تتلقى صدمة الرفض القاسية ؟ . . . أخرج الآن وعد غدا ، فقد يكون الجو أكثر اعتدالا ، فليس في هذا الصباح ما يبشر بالخير ، فقد أراقت السماء فيه ماء المطر ، وأرقت أنت اللبن على عتبة الدار وليس في مرأى هؤلاء القواد الوقورين المهيبن الذين يطالعونك من هذه الجدران ما يبشر بالخير والفلاح ! . .

وهممت أن أستقبل الباب ، فاذا صاحبي يدخل منه . . واذا هو رجل أشيب الرأس ، عليه ثوب من أثواب البيت باهت اللون تعلوه طبقة من الاوساخ ، فسألني عن الباعث لى على زيارته فقلت له ان « ايميليان » ايفانوفتش « هو الذى أرسلنى ، لاننى بحاجة الى أربعين روبلا لشأن عاجل ، فرأيت فى عينيه رفض طلبى واضحا ، ثم قال لى :

- لاجدوى من الحديث ، فليس لدى ما أقرضه . . ثم هل معك ضمان أو رهن ؟
فأجبتة :

- ليس عندى ضمان أو رهن ، ولكن ايميليان قال انك رجل نجدة ، وأنا بحاجة ماسة الى هذا المبلغ فورا وبأى ثمن . .
فأصغى لكلماتى كلها حتى انتهيت ثم قال :

- لاحيلة لى ، فليس عندى مال فى الوقت الحاضر .
فوذدت فى هذه اللحظة لو أن الارض انشقت فابتلعتنى يا فارينكا . . ولكن الارض لم تنشق ، وبقيت قائما فى وسط الغرفة ، فى ملتقى نظرات القواد العظام المعلقة صورهم على الجدران وقد دارت بى الارض الفضاء ، واستولت على قشعريرة مباغته وخانتى ركبتي وبتخاذلت ذراعى
وجعلت أنظر الى الرجل ، والرجل ينظر الى ، وتكاد نظرتة تصيح بى :

- أخرج أيها الرجل ! ماذا يبقيك بعد هذا ؟

ولكنى تجلدت وبقيت حيث كنت ، فقال لى فجأة :

— ولماذا تريد هذا المبلغ ؟

فعجبت لتطفله الجرىء ، ومافتحت فمى لاجيبه حتى عاد الى

الكلام دون أن يصغى لما كنت سأقوله :

— كلا ! كلا ! فليس لدى مال والالاديت لك هذه الخدمة عن طيب

خاطر .

فحاولت اقناعه ، ورحت أتكلم وأتكلم ، مهونا من قيمة المبلغ

الذى أطلبه ، مؤكدا له عزمى على الوفاء به قبل أجله المضروب ،

واسـتعدادى لدفع أيما فائدة يطلبها بغير مما كسـة .

وكانت صورتك ياملاكى العزيز هى التى شددت عزمى وأملت

لى فى هذا الالحاح . ولكن الرجل ظل على صلابته فلم يلن ، وجعل

يردد فى اصرار : . .

— لافائدة من الكلام فى الفائدة والربح ، فقد كنت أفكر فى

اقراضك لو كان معك رهن أو ضمان ، أما هكذا يا صاحبى فلا !

ليس عندى مال . . أقسم لك بالله العظيم اننى لأملك هذا

المبلغ ، ولو كان معى لما ترددت فى اعطائك اياه . والله على ما أقول

شهيد .

مأشده تبجحـه وهوى قسم آثما غير متخرج !

ولم أدر والله يا أختاه كيف عرفت طريق الخروج ، وكيف

اخترقت الشوارع دون أن أضل طريقى ، فما كانت فى ذرة من

الرشد . .

ولم أصل الى مكتبى فى الديوان الا بعد أن تجاوزت الساعة

العاشرة ، ووقفت فى دهليز الديوان قليلا ، ثم فكرت فى

تنظيف كسائى مما علق به من الوحول ، بيد أن «سنيجيريف»

الحاجب نبهنى الى أن هذا العمل من شأنه أن يوسخ الفرشاة ،

والفرشاة مما يستعمله سعادة المدير . ثم انها من أملاك الدولة

التي ينبغى أن تصان من العبث والتلف . .

الى هذا الحد يا أختاه بلغ بى الهوان ، حتى على الحجاب والخدم . .
 فأنا أهون شأننا من حزمة من القش يسمونها فرشاة . .
 وهذا الهوان يا أختاه هو الذى يقتلنى غما وهما . . فليس
 الأفلاس والفقر الى المال فى ذاته شيئا ، لولا سقوط الكرامة
 وضياع الهيبة . . ولولا ذلك الهمس والغمز واللمز ونظرات
 السخرية التى أقابل بها فى كل مكان . .
 واهالى يا أختاه ! لقد مضت الحلاوة عن أيامى ، ولن تعود
 اليها .

لقد تلوت خطاباتك جميعا فى يومى هذا ، فأورثتنى هذه
 القراءة حزنا على حزن . .
 وداعا يا صديقتى ، وفى حفظ الله !

مقار ديوفشكين

ملحظ : لقد حاولت أن أمزج قصة اخوانى بالفكاهة ، فجاءت
 الفكاهة مريرة المعالم ، كأنها أنين أخطأ مخارج الصوت . وكم
 كان بودى أن أتبع نصحك فلا أكثرث . . ولكن هيهات . .
 وسأتى لزيارتك عن قريب . .

١١ أغسطس

بربارة ! يمامتى وأختى !
 لقد ضعنا وانتهى الامر ! نزلت الكارثة بى وبك ، فقضت
 على سمعتى وشرفى ، وأصابك منها رشاش غير يسير ! لقد بت
 مضغة فى الافواه ، وأضحوكة للصغار والكبار . .
 لقد اخترأت ربة البيت على ، وأطلقت لسانها فىنا بما وسعها
 من التهم والسباب ، لم تدخر تصريحاً ولم تأل فى الاقذاع
 جهدا . . وكنت أنا سبب هذا البلاء الذى حاق بك منه أسوأ ما
 يحق بامرأة مخدرة .
 قبلاً أمس ، وقد أقبل الليل ، اخرج صديق من أصدقاء جارى

« راتازايف » مسودة خطاب كتبه اليك ، وكانت قد وقعت من جيبى لشروود ذهني وضعف بصرى دون أن أدري .. وأخذ يقرأ هذه المسودة ، والسكان جميعا من حوله يعلقون على عباراتها بنكات مقذعة وسخرية لازعة .. فثرت ووصمت جارى « راتازايف » بخيانة الصداقة وعهد الجوار ، فسخر منى قائلا :
- بل انت الذى خنت العهد ، ورحت من وراء ظهورنا تقتنص قلوب الغانيات ، أيها الغوى المضل الكهل زير النساء ..

فانطلقوا جميعا يصيحون بى :

- زير النساء ! زير النساء !

وباتوا لا ينادوننى الا بذلك اللقب الشائن ! فما أشد خجلي وخزى ! هم اذن يعرفون كل شىء . هم اذن على علم بدقائق حياتنا وما بيننا من مودة وتعاطف ..

والانكى من هذا ان الخادم « فالدونى » بات فى زمرة الهازئين . فلما طلبت اليه اليوم أن يبتاع لى شيئا من السوق ، أبى أن يذهب . ولما قلت له وأنا فى عجب من أمره :

- ولكن واجبك أن تطيع .

أجابنى بوقاحة :

- لست ملزما بطاعتك ما دمت لم تدفع أجر سكنك !

فلم أطق صبرا وصحت به :

- انت وقع

فرد على السبة بمثلها وزيادة ، فحسبته مخمورا وقلت له :

- أراك لست فى حالتك الطبيعية ، وما أحسبك الا

مخمورا ..

فصغر الوغد خده وقال لى :

- وهل سكرت بمالك ؟ لو كان معك ثمن كأس لشربتها ،

ولكنك صعلوك مفلس تعيش على صدقة تجود عليك بها امرأة

علمها عند الله وأهل العلم ..
ثم بصق على الارض وقال فى ازدراء :
- ومثل هذا العتل يدعو الناس سيدا !!
.....

هذا يا أختاه هو ما صرت اليه اليوم ، حتى بت خجلان من
نفسى ، مستخزيا من عيشى
أما لهذا الليل من آخر ؟
لقد هبطت حتى لم يبق مزيد من الهبوط ، وقنطت حتى
استنفدت آخر مدى القنوط ..
فحتى متى ؟

مقار ديوفشكين

١٣ أغسطس :

عزيزى العزيز

لقد تكاثرت علينا الارزاء ، حتى لم أعد أدري ما العمل ..
وثالثة الاثافي يا صاحبي ان المكواة أحرقت يدي اليسرى ،
أحرقتها وأنا شاردة الذهن فلم أتنبه الا بعد فوات الاوان ..
وكذلك استحال على العمل حتى تبرأ يدي ..

وهذه فيدورا مريضة منذ ثلاثة أيام ، فلا سبيل لها الى العمل
أيضا ، فأنا من هذا فى هم مقيم .

هاك نصف روبل هو كل ما استطعت الحصول عليه ، وليس
معى سواء .. والله وحده يعلم كم كنت أود أن أمد لك يد العون
فى ظرفك الراهن . . ولكنها ارادة الله !

لقد بكيت قهرا عندما حرققت يدي . بكيت من أجلك ،
فقد كنت أريد أن أعمل غاية جهدى لكى أعيذك على حياتك ..
فتعال لزيارتى اليوم ، ففى ذلك مسلاة لى كما تعلم

بربارة

١٤ أغسطس :

ماذا دهاك بحق السماء يا مقار الكسييفتش ؟ الا تخاف الله ؟
 انك تكاد تدفعني الى الجنون دفعا بمسلكك المخزى . . فائق الله في
 سمعتك ، فقد كنت على الدوام رجلا فاضلا متزنا أبى الخلق ،
 فكيف سولت لك نفسك أن تلتطح بالعار لمتك البيضاء ؟
 انق الله يا شيخ ! لقد ضاقت فيدورا بتصرفاتك ذرعا ،
 وأقسمت لا تساعدك بشيء من كدها بعد اليوم ، ما دمت تبدد
 ما يصل الى يدك في العبث الذي يسقط مروءتك ويفضحك بين
 الناس . واني على رأى فيدورافي هذا ، فلن أعطيك بعد اليوم
 درهما يا مقار الكسييفتش .

أم تراك تظن انه يستوى عندي خيرك وشرك ، فضلك ومجانتك
 صلاحك وفساد أمرك ؟ أو تجهل ما أتحمّل راضية من أجلك ؟
 لقد أخزيتني باعوجاج سراطك ، حتى بت لا أجرؤ على الظهور في
 درج بيتي ، فما يراني الجيران حتى يشيروا الى البننان
 ويتهامسوا بكلام تقشعر منه الابدان . . ومنهم من لا يخافت
 من صوته حين يصمني بالتفريط في شرفي في سبيل سكير
 عرييد ! . . أو تحسبني أسر بسماع مثل هذا الكلام ؟

وما من مرة أعادوك الى بيتك غائبا عن الصواب بما عبيت من
 الخمر الا تحدث الناس عنك كما لو كان السكر صفة ملازمة لك
 لا تستحق مناقشة أو تعقيبا أو دهشة . . فاجل لك . . حتى
 بات بقائي في هذا البيت أمرا لا يطاق بسببك .

أجل ، لقد عزمت على الرحيل عن هذا البيت بأي ثمن .
 سأعمل قهرمانة ، أو خادما أو غسالة . . فأى شيء أفضل من
 عار صداقتك .

لقد دعوتك في خطابي السابق لزيارتني ، ولكنك لم تأت . .

فهل صارت توسلاتي عندك الى الهوان ، حتى ما تستجيب لي
رجاء يا مقار ؟

ومن أين لك ثمن الشراب ؟ نشدتك الله يا صديقي أن ترحم
نفسك وترحمني ، ففي هذا الحمار قضاؤك ، وفيه ضياع
سمعتك وسقوط مروءتك .

أرأيت الى ربة بيتك كيف أغلقت الباب في وجهك ولم تأذن
لك في الدخول وقد عدت أمس في ساعة متأخرة ، تترنج من
شدة السكر . . فقضيت ليلتك - أو ما بقي منها - في دهليز
الدار .

أكنت تحسبني لا أعرف هذا ؟ بل أعرفه يا صديقي ، فكل
سر يذيع بين الناس ، ولا سيما أسرار السوء . وأخبار المآثم . .
ولعلك تقدر مبلغ حزني وخجلي حين سمعت الحقيقة من أفواه
الناس هذا الصباح . . فاتق الله في نفسك ، وفي شرفك ، وفي
قلبي المصذب من أجلك ، فانك توشك أن تقتلني حسرة وأسى
. . فما من شيء يعلقني بالحياة الآن الا أنت . . فمن أجلك محياي
فلا تكن علة مماتي ، ولا تدع أعباء الفاقة تفسد عليك عزيمتك
ومروءتك ، فليس في الفقر ما يعيب المرء ذا المروءة ، وانما يعيبه
حقا جنوحه الى المجانة والاسفاف . .

واني أعلم ان يأسك من يسر حالك هو الذي أودى بما تعتصم
به من التجميل والجلد ، فانسقت في تيار الشراب . ولكنك مخطيء
في هذا القنوط ، فما من عسرة الا الى ميسرة . والله المستعان . .
فاعتصم بحبل الله ، وأصبر ولا تقنط .

أبعث اليك بعشرين كوبكا لتشتري بها طباقا لجليونك .
ولكن نشدتك الله ألا تنفقها في خبيثة من الخبائث ، وأم الخبائث
الحمر !

تعال لزيارتنا ، ودع عنك هذا الحجل ، فلا عليك مما فعلت ،
ما دمت قد تبت وانبت ، والله يقبل توبة التائبين ، وسيجعل
الله لك بعد ضيق فرجا ، والسلام

بريارة

١٩ أغسطس

بربارة ، يا أختي العزيزة !
شد ما يثقل على الحجل ، حتى ليكاد يأخذ على مسالك الانفاس !
ولكن أى ضير فى هذا الذى أقترف ؟ وهل من ضير فى اذابة
الهموم فى كأس سميت كأس الحياة ، « لو مسها حجر مسته
سراء » .. ؟!

أم هل كتب على يا أختاه أن أظل أسير الهموم ، لا أسرى عن
فؤادى بغض ما يغص به من الأوصاب ، برشفة من الشراب ،
تنسيه ما يلقي من دهره ، وما يعلق بسره وجهه ، من الضعة
والهوان ؟

ألا بارك الله فى بنت الحان انما أعب منها جرعة بعد جرعة ،
حتى أنسى نعل حذائى الذى ذهب مع الريح ! • لعن الله ذلك
النعل ، فما ينفك يشغل دماغى فى اليقظة ، ويتراءى لى فى أحلامى
حين أنام !

وما أدرى والله ما لزوم الاحذية للناس ؟ انها قيد وهم • • وما
كان قدماء يونان يتخذون الاحذية ، وانما هى خفاف لطاف ،
فلماذا نعننى أنفسنا بما لا طائل تحته ؟

فأى عار فيما أفعل يا أختاه ؟ انك والله لتقيمين الدنيا
وتقعدينها فى غير جدوى • وأما فيدورا فابلغيها عنى انها امرأة
خواء القلب تافهة العقل عتلة زنيمة خبيثة الطوية !

• • وأما ما عرضت به من شعري الابيض ، فذلك وهم من
أوهامك يا أختاه ، فلسنت من الهرم بحيث تتوهمين • • وان
فى لفتوة !

تقولين انك حزنت وبكيت غما وأنا كذلك بكيت يا يمامتى .
والله تعالى مسئول أن يرفع عنا سخطه ومقته . .
واياه أسأل أن يمنحك الصحة والعافية . أما أنا فبخير حال ،
وانى لك على الدوام يا ملاكى

الصديق الوفى

مقار ديوفشكين

٢١ أغسطس :

سيدتى العزيزة وصديقتى بربارة . .
انى أشعر الآن بجسامة خطئى ، فقد أخطأت فى حقك
خطأ فادحا . وما أخالنى وقد عنيت قلبك الغض وأضنيته
بالهموم الا وحشا ضاريا . . ولكن الحق يا يمامتى اننى لست
وحشا ضاريا ، بل رجل طيب القلب، هو أشبه خلق الله بالحمل
الوديع . .

فكيف اذن تورطت فى هذه الاخطاء وأنا ذلك الحمل الوديع
الطاهر الفؤاد ؟

لا أدرى ! ولكنى أذكر انك بعثت الى ذات مرة نصف روبل
« ثلاثين كوبكا » ثم عشرين كوبكا بعد بضعة أيام . . فحز فى نفسى
جدا أن أهبط الى هذا الدرك ، وأن تجد فتاة رقيقة القلب مثلك
ان التصديق على أمر طبيعى . . لقد كانت دراهمك أيتها الفتاة
اليتيمة مثل درهم الارملة المتسولة التى وضعتها فى صندوق
النذور ، شيئا يرجح ملايين الاغنياء ، ويزيد عليها فى القدر
. . ثم أحرقت يدك بالمكواة ، ولم يبق لديك ما تأكلين ، ومع ذلك
شغلت نفسك بالاحسان الى ، كى أشتري طباقا أو خبزا . . فلما
انفقت دراهمك فى طعامى وطباقى ، استولى على ندم شديد
. . وما كنت قمينا أن آكل صدقتك أيتها اليتيمة المحرومة
دون أن يعصف بى الندم والحزن . . فكان هذا الندم أقوى من
احتمالى ، ومن « قشرة » الكرامة الرقيقة التى أتجمل بها أمام

نفسى .. فانهارت هذه القشرة ، وجرفها تيار ندمى وخجلى وحزنى
ومن هذه اللحظة بدأت قصة سقوطى ، بعد حياة طويلة من
التماسك ونقاء الصفحة !

فهل تريننى ملومة على هذا السقوط ؟
لا أظن ! وانما هو القدر ، القدر الذى جعل منى العوبة هينة
بين يديه القاسيتين ..

لقد كنت أعالج همومى بالتجول فى الشوارع حين صادفنى
إيميليان ، الموظف الذى رفت منذ زمن من ديواننا ، وكان
يحمل أشياء يريد ارتهانها ، لان عياله جياع .. ولكنها أشياء
لا ترتهن ، فليست لها قيمة الامن حيث هى تذكارات شخصية
وأخذتنى به الشفقة ، ورأينا حانة على الطريق يشع منها الدفء
.. وكان الجو باردا يا بربارة ، فملت معه اليها ، وشربنا كأساء ،
ثم شرعنا فى البكاء معا ، على سوء حظنا وسواد أيامنا ، فوجدنا
فى البكاء راحة ، ثم شربنا كأساء أخرى ، وجعلنا نتذاكر آلامنا
وأحزاننا .. وتحدثنا عنك كثيرا يا يمامتى . . فبكى إيميليان من
أجلك ، فهو رجل طيب القلب ، ولكنها مظالم الايام !

فلاتحسبى يا يمامتى اننى أجهل ما أنا مدين لك به ، فأنا مدين
لك بالحياة كلها ، فقبل أن أعرفك لم أكن حيا ، لقد كنت وحيدا
لأشعر بنفسى أو بمرور أيامى . كنت كالنائم ، والنائم أخو الميت ،
لا احساس له بالدنيا وما فيها .. وكان معارفى يحتقروننى شكلا
وموضوعا ، حتى انتهى بى الامر الى تصديقهم ، فاحتقرت نفسى .
ثم ظهرت انت ياملاكى فى أفق حياتى ، فبدلت ظلامها نورا
مشرقا ، وبعثت الحياة فى نفسى الموات ! .. وبدأت أعى وجودى ،
وأشعر أن لى قلبا ، وان لى روحا ، وان لى نفسا كنفوس البشر !

وفى فيض من نورك الذى أفأته على نفسى ، عرفت معنى
الطمأنينة ، وهدوء السريرة ، وانجاب عنى الشعور بالمهانة
والدونية ، وبت أرى نفسى كفتا لاي انسان ممن كنت أحسبهم

خيرا منى بمراحل .. ولم تعد تكربنى زراية مظهرى وقماعة
قامتى ، بعد أن صح عندى قيام شخصيتى الانسانية بما انعقد
بيننا من صداقة وتقدير .

فلما كثرت على المحن ، وتداعى ذلك التقدير الذى كنت
أستمد منه منك ، انهارت روى المعنوية ، ولم يقف سقوطى عند
حد ..

فاذا أردت بى رحمة فأطوى هذه الصفحة ، ولا تجرى لها بعد
اليوم ذكرا ، لانها تهيج ما بى ، وتمزق شغاف قلبى .
ولك خالص احترامى وصادق مودتى

مقار ديوفشكين

في متاهة الزمن

٣ سبتمبر:

لقد عاقنى الحزن والاسى عن اتمام خطابى السابق اليك
يامقار .. فحين تجثم الكآبة على صدرى لا أجد فى نفسى
مطالوعة على الكتابة او الحديث، واركن الى الخلوة كي اترك
نفسى على سجيتها ، واطلق العنان لآحزاني ودموعى ..
وارى هذه السحاب السوداء قد كثرت فى الايام الاخيرة
كثرة عظيمة ، حتى صارت اشباح الماضى وتذكاراته تحف بى
أكثر مما تحف بى حياتى الواقعة . وقد تستغرقنى هذه
التذكرات حتى أنسى الزمان والمكان وكان الواقع قد تلاشى
من الوجود .. وقد تدوم هذه النوبات ساعات متواليات ..
وأكثر هذه التذكرات مما يرجع الى عهد الطفولة الناعمة
فى أحضان الريف ..
وأما صحتى ، فهي تزداد على الايام ضعفا ، وأحسب هذه
الذكريات علة ضعفى واستنفاد عافيتى ..
بيد انى ارى هذا الصباح صحو الاديم مشرق الضياء ،
على غير المعهود فى أيام الخريف . . ألا شدا ما كنت أحب
الخريف ، أيام كنت فى القرية طفلة مرخاة العنان بين الماء
والزرع والهواء ، مستقلة بمشاعرها .
فى تلك الايام ، كنت أوتر امسيات الخريف على صباحه
ولا سيما على حفاقي البركة الكبيرة التى تجاور بيتنا ، عند
سفح التل . فهناك كنت أجلس اذا أرخى الليل سدوله ، واوت
الماشية الى مزاودها ، وسكنت كل نائمة فى القرية . فاذا صفحة
الماء فى سكونها وصفائها كأنها سبيكة من البلور ، ودخان
الخشب المحترق امام كوخ للصيادين يملأ الهواء الساكن

~~~~~ في متعة الزمن ~~~~~

برائحة خفيفة ، والندى يرصع نابت العشب الاخضر بلؤلؤة في أثر
لؤلؤة .. ولللال في صفحة السماء الصافية لآلاء وبهاء يملأ النفس
بهجة وهدوءا .. فاذا خفق جناح طائر ، او روعه عن وكره
مروع فصوت فزعا ، ملأ ذلك الصوت آفاق الفضاء .. لان
سكون الليل الرطيب قد احال الجو الى صندوق من صناديق
الکمان الرنانة ..

شد ما كنت آنس الى هذا السكون الذي يزيل الحوائل
بين نفسي وبين رخابة الكون اللامتناهي .. !
كذلك كان الخريف وأمسياته الحسان في ذلك الزمان .. حتى اذا
حث الخريف الخطي ، وجاء في أعقابه الشتاء ، نقلت مسرح
خواطري من ضفة البحيرة الى مسالك الغابة ذات الدوح المنيف
والظل الوريث ، الذي يضرب الضوء فيه الى الزرقة في النهار
حتى اذا قربت ساعة الاصيل استحالت الزرقة سوادا حالكا .
وكثيرا ما كنت أنسى نفسي في نزهتي ، فيهجم الليل ،
وتترأى لي الاشجار الباسقة كأنها المردة تهم بالانقضاء على
وأنا أسير وحدي في قلب الغابة الموحشة .. فأحث الخطي ،
وقد جعل قلبي يخفق ويضطرب فكأنني ورقة تتقاذفها الريح ،
التي أسمع عزيقها بين الغصون وأحس به يقترب مني كأنه
زمزمة تطلقها أفواه الشجر .. وأخالها تقول لي في صوت أجش
يقطر رهبة ووعيدا ..

- اسرعى أيتها الطفلة .. ! اسرعى .. ! فليس هنا مكانك
فهو مسرح رهيب لرهيب من الاحداث يكتم سرها الليل الكتوم
فأجری ما أسعفتني قدماي وساقاي ، حتى أصل الى بيتنا
مبهورة الانفاس ، فاذا الضوء ينبعث من السراج ، والدفء
يشيع في الحجرات ، والاصوات المانوسة تملؤها بهجة وأمنا .

~~~~~ في متاهة الزمن ~~~~~

فأجلس الى مربيتي العجوز ، فتقص على قصصا رائعا ،
تشارك في روعته مخيلتي الناشطة .. حتى ليحفو النوم
أجفاني في بعض الليالي ، لكثرة ما تشغل تلك الاقاصيص بالي ،
بما فيها من سحرة ومزدة ومغامرات .. ولكنى كنت أجد
نفسى عند مطلع الصبح جملة النشاط كزهرة انعشها ندى
الفجر ، وأيقظتها قبلات ضوئه الحانى ..

ومع الصبح تبدأ حياتنا الهائلة الهادئة . فنجلس قرب نار
الموقد ، ونحلق باناء الشاي الكبير (الساموفار) ، ويدخل
علينا كلبنا « بولكان » وقد جلله الندى لانهبات تحت الطل في العراء
أمام باب البيت ، فيحيننا بصبصة من ذنبه الكث الشعر
ويجلس بيننا ، كى ينعم بالدفاء .. وكأنى بنا كنا نسمع خفق
أجنحة السعادة وهى ترفرف فوقنا ، فالمحصول وفير ،
والدفاء يشملنا ، وكل شئ يبعث على الرضى والطمأنينة .

هاهما عيناى وقد استهلتا بالدمع لذكرى تلك الايام الخوالى ،
التى بدل الزمن المبدل أمنها حزنا ، وأنسها وحشة ، وصفاءها
كدرا ، وجمالها قبحا ، وطمئنانها بلاء وهما مقيما ..

أما لهذا الليل من آخر .. ؟

انى لأتوجس من هذا الخريف شرا ، وتحدثنى نفسى أنه
سيشهد ختام أيامى ، فالمرض يلح على الحاحا شديدا ..
وما بى خشية الموت ، ولكنى لا أحب أن أدفن فى أرض المدينة
التى تضيق بالناس ولا تبدى لهم الا الكزازة والكنود ..
وما حيلتى . . ؟ أن العلة تزداد فوق صدرى جثوما ،
حتى لاخشى أن ألزم الفراش ، وما غادرته الامنذ أيام معدودات
شد ما تثقل على الوحدة . . ففيدورا اليوم غائبة عن الدار
فى شأن من خاص شئونها ، فأسلمتنى الوحدة الموحشة

~~~~~ في متاهة الزمن ~~~~~

للكتابة والتشاؤم .. ولعل هذه الوحشية هي التي أملت على هذا الخطاب الطويل ، فالكتابة إليك تؤنس وحدتي وتبدد وحشتي ..

ولكن ما غندي من الورق قد نضب معينه ، فلا محيص عن انهاءه عند هذا الحد ..

لقد بقي من ثمن ثيابي والقبعة التي بعثها بالأمس روبل من فضة ، أبعث به إليك كي تحاول إصلاح كسائك قدر ما تستطيع وأن كان قد صار إلى حالة تستعصى على كل إصلاح ..
أراني تعبت وأصابني الكلال .. ولست أدري لماذا يسرع إلى التعب وشيكا لقل مجهود .. حتى ما أدري ما أصنع لو ساق إلى الله عملا .. ما أحسبه إلا قاتلي ..

بريارة

٥ سبتمبر :

يمامتي وعزيزتي فارينكا !
تداولتني هذا الصباح أحاسيات شتى ، حتى اضطربت نفسي ، فرحت أنشد عند الاصيل شيئا من الراحة والهدوء على الشاطئ .. وكان المساء حالك الظلمة ، وفي الجو اثارة من الرطوبة .. ولم تكن الساعة مع هذا قد تجاوزت السادسة وكانت صفحة السماء مغطاة بالغيوم ، وعلى شاطئ التربة زحمة من الناس تساق زحمة السحاب في أفق الليل ..
ومن عجب ان ذلك الجمع الحافل من الناس لم يكن فيه الا كل وجه هضم ، وكل سحنة للكتابة عليها مسحة وذبول .. وجميعهم من نفاية المجتمع بين نسوة ورجال ، فليست ترعة « فونتانكا » من منازله السادة وأهل السميت .. !
وضقت بالمكان ورواده ، فعدلت عنه إلى شوارع المدينة

في متاهة الزمن . .

فساقتني قدمي الى شارع « جورو خوفايا » .. فاذا انوار
وحركة وتجارة نافقة وواجهات جميلة وازهار مونقة ..
وقد حسبت والله ان كل هذا الجمال المختلف الالوان مما
جعل للزينة ولذة العيون والأذواق ، ولكني رأيت نفرا من
الناس يشترون ذلك الجمال ، فيحصلون عليه لقاء ما يبذلونه
من المال ..

وأما أرض الشارع ، فما ادري والله كيف كانت تتحمل كل
هذه العربات المظهمة التي كانت تدرج فوقها غادية رائحة ، في
أبهة وخيلاء : فالزجاج لامع كأنه المرايا المصقولة ، ومن خلفه
الخز والدياج ، يجلس بين ثناياه فتية موشاة صدورهم ، وفي
جنوبهم الاسياف الصقال . . ونساء كأنهن الاقمار ، عليهن
الدر والياقوت وريش الطاووس .. وعليهن جلال الامارة ..
فلعلهن من الاميرات ، وان لم يكن اميرات فدوقات أو كونتات
وما أشوقني أن أرى أميرة أو كونتة رأى العيان عن كذب .. !
ولكن هيهات .. ! لا يكلف الله نفسا الا وسعها .. !

لقد خطرت ببالي في تلك الساعة يا يمامتي الجميلة ،
وصديقتي العزيزة . . وما تخطرين ببالي ، حتى يتنزي
قلبي لما تلقين من دهرك الغشوم وقضائك الظلوم .. !
بماذا تفضلك يا يمامتي أي واحدة من هاتيك المترفات
الناعمات ، وانك لطيفة النحيزة حلوة الشمائل ، سرية النفس ،
زكية الفؤاد ، وانك لحسناء كالبدر ليلة التم ، رقيقة كالزهرة
فلماذا يا الهى تشقى من ليست للشقاء بأهل .. ؟ لماذا
ألتبس أسباب السعادة فتخطئها جميعا سببا بعد سبب .. !

اغفرى لى يا اختاه هذه الثورة المتمردة ، فانى عالم انها
خطيئة وكفران لا يليق بالرجل الفاضل ، لانها من قبيل الافكار

في متاهة الزمن . .

التقدمية الملعونة . . ولكنى لأملك - مع هذا - ألا أناساءل
مرة أخرى : « لماذا يشقى أناس وينعم آخرون . . ؟ لماذا يكتب
الشقاء على قوم دون ذنب ، ويكتب الرغد وخفض العيش
لقوم آخرين دون استحقاق ؟ »

هذه والله حيرة العقول ، وحيرة الضمائر والقلوب . . !
فكم من مخلوق لا يساوى ملء أذنه نخالة . . فلا فكر ولا
احساس ولا ذوق ، هبطت عليه محابة القدر ، فقال له :

- اسمع يا هذا . . ! لست شيئاً ، ولكنى أريد لك أن تتمتع
بكل شيء . . ! فهذا ميراث جدك الراحل يغفل عليك أكداً
الاموال ، فكل واشرب ، وكل ماأشتهيت فهو لك . . فهذه
أرادتى ، ولهذا ينبغي أن تعيش !

فلماذا لا تكون لك يا يمامتى عربية مطهمة ، وأثواب من حر
وديباج ، فسيتجدى القواد والامراء نظرة من عينيك الساحرتين
وانت تتيهين عليهم بجمالك وشبابك النضير . . ؟ !
لماذا لا تجددين شبع بطنك من جوع ، فلا تكدحى وأنت
مريضة ، حتى يشتد عليك الهزال وتصلح عليك الادواء ؟ !
لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا . . ؟

لو كان لك شيء من ذلك لكان حسبى من الدنيا وما فيها
ومن فيها أن أرمقك من بعيد وأفرح لهنائك ومجدك . .
ولكنك وأسفاه ، فتاة يتيمة ، بلا مال ، وبلا معين ، وبلا
سند يقيك غائلة الدهر ، وغائلة ذئاب البشر ، أولئك الوحوش
الذين لا ينظرون اليك الا نظر الصائد للطير والباشق للعصفور
يأتمرون بك لانك ضعيفة ، مهينة الجناح ، بلا أبوين وبلا
مال . . !

الا قاتل الله الفقر يا أختاه !
وقاتل الله رجلاً يعدون على من لا حامى لها ولا راع ، فهم

في متاهة الزمن . .

أشباه رجال ولا رجال ، وذئاب وبنات آوى في أجلاذ آدميين . . !
ويا رحمتا لنا نحن غيال الله الفقراء من عباد الله الذين حباهم
الثراء وسلبهم الأريحية والآباء !

خير منهم والله عازف الأرغول الذي يجهد شذقيه وعصره
كي يرسل انعامه العذاب سلوة للناس . . فهو انسان كريم ،
يمنح الناس لذة ومتاعا ، وليس ساطيا عليهم يسلبهم أمنهم ،
متى أمن المقاومة والعقاب . .

وانا يا اختاه من طراز هذا العازف الفقير الهين الشأن ،
فأنا ايضا أبذل طاقتي في إعطاء المجموع الذي أعيش فيه ثمرة
جهدى المتواضعة ، ولا أسطو على أحد باغيا عاديا . .

لقد وقفت يا اختاه أرقب منذ أيام جماعة من الاطفال
الحفاة العراة ينتفضون من شدة البرد ، وأهمهم العجوز - من أثر
الفاقة لا بفعل السن - تستندى أكف المارة بقصة جوعهم
وفاقتهم ، وما نزل بهم من كوارث شداد . . فكان المارة
يضيقون بها وينهرونها ويمضون في طريقهم ساخطين . . فعرفت
يا اختاه أن ذوى اليسار لا يحبون من الفقير أن يصرخ في آذانهم
بقصة شقائه ، فذلك قمين أن يفسد عليهم جوهر الناعم
وعيشهم الخفيض . . فالفقير شيء منكر قبيح . . والناس
يكرهون المنكر والقبيح . . !

عفوا لهذا الاستطراد ، فاني أجد في كتابة جميع خواطري
إليك راحة وسلوى ، فقد أبت من نزعتي مكدود الخاطر ،
تعرض القصص حلقى ، ولا أجد للحياة طعما سائغا ، فاذا
« جور شكوف » - ذلك الموظف المفصول من الخدمة الذي يعيش
واسرته كلها في غرفة واحدة من بيتنا ، والذي مات أحد اولاده
منذ مدة قريبة - اذا بهذا الرجل يدخل غرفتي في استكانة

~~~~~ في متاهة الزمن . . ~~~~~

ومذلة ، ويطلب منى - منى انا - أن أعطيه شيئاً لبنيه الذين
أضر بهم الجوع . . !

أختاه . . ! ان هذا فظيع !

لقد حاولت أن أفهمه اننى مثله رجل فقير ، واننى حاولت
الحصول مثله على قرض فلم أفلح ، ولكنه ظل يردد على
سمعى جوع اولاده وحاجتهم الى الخبز القفار منذ يومين ،
وان سائر السكان يضيقون به ولا يفهمون ولا يرحمون . .
فتذكرت أن الناس لا يفهموننى ولا يرقون لفقرى وحاجتى ،
بل يهزأون بى . . فأعطيته العشرين كوبكا التى كنت قد
حرمت نفسك منها لتبعثى الى بها . . فجعل يشكرنى بعبارات
متعشرة . .

فسأله كيف انتهى الى هذا الفقر المدقع ، فحكى لى قصته
وانها لعجبية من عجائب الظلم وسوء الطالع . . فقد كان يعمل
فى أحد دواوين الحكومة ، عملا يتصل بأعمال المقاولين الذين
ينشئون الدور الحكومية ، فزور ذلك المقاول فى أوراق
العمل دون أن يدري جور شكوف المسكين ، فلما ضبط التزوير
جر المقاول الخبيث جور شكوف معه الى التهمة ، ففصل من
العمل . . فقدم جور شكوف تظلما ورفع الى القضاء قضية
تعويض ضد المقاول . . ولكن هذه الامور كما تعلمين رهن
بالوساطات والنفوذ . . وجور شكوف مثلنا لانفوذ له ، وليس
محسوبا على احد من ذوى النفوذ . . فانتقضت سنوات
دون أن يفصل فى هذه القضية التى لا تزال تتعثر أمام دور
المحاكم . .

ومن يدري . . ؟ ان الامل فى انصاف امثاله جد قليل . وانى
لارق له رقة شديدة ، حتى ما أدري كيف سيواتينى النوم
هذه الليلة . . ؟

~~~~~ في متاعه الزمن . . ~~~~~

ان هذا المسكين لا يجد عملا لان فصله من الخدمة سلبه حقه
في الثقة به ولو كان رجلا شريفا . . والبطون لا ترحم يا أختاه !
وقد ساءت صحته في الشهور الاخيرة ، ولا سيما بعد
موت ولده ، واصابه داء لا أمل في شفائه منه . . فهو أشقى مني
بكثير ، وشقاؤه يزعجني ويقض مضجعي ، ويجعلني أكرر سؤالي
- رباه . . ! لماذا كل هذا الشقاء . . ؟ وماذا يمكن ان
تكون الحكمة منه . . ؟ !

ولكني أثوب الى رشدي وأستغفره سبحانه . . انه هو
المؤين الحكيم والرحمن الرحيم

...

والآن سلاما يا يمامتي . . ومتعك الله بالعافية . . فأنت
ريحانتي التي أستروح منها الحياة حين يخطر ذكرك بيالى
المكدود . . وحتى اذا تأملت لك حين أذكرك ، فما أعذبه من ألم
لأنك موضوعه الجميل يا صديقتي ونور أيامي . .

مقار ديوفشكين

بيد الله

٩ سبتمبر

أختى بريارة الكسيفنا !

أكتب اليك وأنا فى حال من الاضطراب ليس عليها من مزيد .
فقد هزنى الحادث الذى مر بى اليوم هذا عنيفا . . حتى ما أدري
كيف أبدأ بالافضاء به اليك . فهو شئ غير منتظر ، وليست له
فى ظننا سابقة بشير ، وان كنت قد رأيت فى المنام منذ ليلال رؤيا
تبعث على الارتياح . . وأحسب هذا الذى وقع لى اليوم تأويلها ،
والله أعلم !

ألم أقل لك فى خطابى ان الله هو العزيز الحكيم ، الرحمن
الرحيم ؟ . .

هو كذلك سبحانهك ولاشك !

بالامس حضر الى مكتبى « تيموثاوس ايفانوفتش » رئيس
الادارة ، وتواضع فكلفنى شخصا بكتابة وثيقة هامة عاجلة للعرض
على سعادة المدير العام ، وأوصانى أن أجود الخط ، وأنمق التنسيق
فكتبتها على خير ماوسعنى فى تلك الساعة ، فقد كنت بالامس
يايما متى على غير مايرام ، ضيق صدر وشروذ ذهن . . وكانت
صورتك لا تفارق مخيلتى . .

ولست أدري أى شيطان من شياطين النحس ركب يدى فى
تلك الساعة ، فنسيت سطرأ كاملا ، فأصبحت الوثيقة كلها
ولامعنى لها . . دون أن يفتن الى ذلك أحد . ويظهر أن الوقت
لم يتسع أمس لعرضها على المدير العام ، فعرضت عليه فى أول
هذا النهار .

وذهبت أنا اليوم الى المكتب خالى الذهن ، فجلست كالعادة
وانصرفت الى الكتابة والتحرير . . ولا أكتمك أن أعصابى قد أضحت
فى المدة الاخيرة شديدة التوتر ، وصرت أتجنب النظر الى وجوه
الناس ، حتى لا تلتقى عيناي بعيونهم . واذا أحدث كرسى من

كراسي الموظفين صوتا خفيفا اضطربت له وقفزت من مقعدي
وجلا !

بيد اننى كنت هذا الصباح فى حالة أشد نكرا من مألوف
أحوالى ، حتى أن الكاتب « اكي موفتش » - وهو من شرار
الخلق وأكثرهم رقاعة - سألنى :

- ماذا بك اليوم يامقار ؟ انك لتبدو مقلوب السحنة !
ثم قلب سحنته ليقلدنى ، فانفجر جميع من فى المكتب ضاحكين
وشعرت بالعرق يتصبب من جبينى فى هذا الجو البارد ..
وانكمشت فى مكانى خزيا ، وأغمضت أعفانى كى لأراهم وهم
يتلوون من شدة الضحك . فتلك عادتى اذا سخرؤا منى ، فالمقاومة
تغريهم بالاستمرار فى العبث ، والاغضاء يصرفهم عنى .
وفى هذه اللحظة بالذات سمعت ضجة فى الدهليز
الخارجى ، ووقع أقدام تجرى من هنا وهناك ، ثم سمعت ما أنكرته
أول الامر ، وعزوته الى وهم من أثر ما حدث حولى من الأعيب
أولئك الحبثاء .. ولكن الصوت تكرر وازداد قربا ، فأيقنت أن
أذنى لم تخدعنى .. وان هناك من ينادينى فعلا وصدقا .
فاشتدت عندئذ دقات قلبى ، واستولى على فزع جائح .
ولست أدرى على وجه التحقيق علة هذا الخوف الذى أصابنى ،
ولعله راجع الى اننى كنت دائما رجلا مغمورا لا يكثر لى أحد ،
ولم آلف أن ينادينى أحد ليسدى الى يدا ، فما يذكروننى الا بالسوء !
وبلغ من هلعى اننى زدت تشبثا بمقعدي ، وتجاهلت اننى
سمعت النداء باسمى مشنى وثلاث ولكن ضجة المنادين اقتربت منى
حتى صارت لصق أذنى .

وصاح فيها أحدهم - حتى أوشك أن يخرقها بسياحه :

- ديوفشكين . ديوفشكين . هيا يارجل ، اسرع ! فأنت

مطلوب فى مكتب سعادة المدير العام .

- المدير العام ؟

- أجل ! فقد أفسدت وثيقة الامس ، ونجم عن ذلك بلاء عظيم .
فأحسست كأن الصواعق قد انقضت على أم رأسي انقضا ،
وسرت البرودة الى أطرافى ، وشلنى الفرع الاكبر . . ولكنهم
لم يدعوا الى فرصة للراحة واسترداد جأشى الذى أطاشت
الصدمة المباغتة ، فسعادة المدير العام فى الانتظار ، ولا ينبغي أن
يظل سعادته فى الانتظار .

ومشيت كما يمشى حالم فى المنام ، غير شاعر بشئ مما يدور
حولى ، فأنا أقرب الى الموتى منى الى الاحياء . . فجازوا بى حجرة
فسيحة ، من داخلها أخرى ، ومن داخل تلك ثالثة هى مكتب سعادة
المدير العام ، فما شعرت الا وأنا قائم أمامه ، بل « مزروع » أمامه
زرعا ، فقد كانت قدمائى كالفائضتين فى أرض الحجرة الفاخرة . .
ومن أعظم المحال أن أصف لك شعورى وفكرى فى ذلك
الموقف العصيب ، فما أذكر اننى كنت أعى شيئا ، سوى مثولى
أمام صاحب السعادة ، الذى كان محوطا بكوكبة من رؤساء الادارات
والاقلام . .

وبلغ بى الدهول اننى لم أسلم على صاحب السعادة ، بل
وقفت هكذا كالجماد ، فاغرا فمى محملى العينين ، وركبتاى
تضطكان من هول الموقف اصطكاكا .

وحدث فى هذه اللحظة ما زاد موقفى سوءا ، بينى وبين نفسى
على الاقل : فقد رفعت عيني ، فاذا أمامى مرآة كبيرة بطول
الحائط ، رأيت فيها ما أطار البقية الباقية من صوابى : رأيت صورتي
يما تتسم به من ملابس زرى ومنظر منفر . .

وأنت تعلمين يا أختاه اننى كنت أتسلل حتى لألفت الى أنظار
زملائى ، أما صاحب السعادة فلم يدخل فى حسابى من قبل ، لانه
لم يكن يعلم على الأرجح مجرد وجودى تحت ادارته السنية .
وبدأ صاحب السعادة الكلام بصوت ينم عن استياء شديد
وعضب مكتوم . قال .

- كيف وقع هذا منك أيها السيد ؟ أين كانت عيناك حين كتبت هذا التخليط ؟ هذه وثيقة هامة من وثائق حكومة صاحب الجلالة المقدسة قيصر جميع البلاد الروسية ، وقد طلبتها على وجه الاستعجال ، فكيف سمحت لنفسك أن تفسدها على هذا النحو ؟ فيم كنت تفكر أيها السيد وأنت تكتبها ؟ وأي خاطر كان أولى بذهنك من عمل الدولة ؟

والتفت صاحب السعادة الى من حوله من رجال الحاشية ، فهزوا رؤوسهم هزة أسف عميق حتى خيل الى اننى أحدثت الحدث الذي لم يسبق من قبل ، وسمعت - من خلال الضباب الذي غشى سمعى وبصرى - قائلاً منهم يقول :

- يالك من مهمل يجر علينا اهمالك أشد المتاعب !
ففتحت يدي ، أهم أن أقول شيئاً على سبيل الاعتذار ، ولكنى لم أدرك ماذا أقول ، فسكت وأن ظل فمى مفتوحاً ! واعتراانى خجل شديد وفزع حتى لقد فكرت فى الفرار ! ولكن أنى لي أن أفر وأنا كالفأر بين عشرات الهررة الواعية !

وحدث فى هذه اللحظة ، وأنا أغالب فكرة الفرار ما ارتعد له الآن فرقاً حتى ليكاد القلم يسقط من يدي ! فقد سقط زر من أزرار كسائي المعدنية ، كان معلقاً بخيط واحد واه ، ويظهر اننى لمسته بيدي فانفلت وسقط على الارض ، وجعل يقفز ويتدحرج محدثاً صوتاً خالته أذناى دوى مدفع أو أهول وقعاً . . .

وهل تدرين أين اختار هذا الزر اللعين أن يستقر ؟ بين قدمي حضرة صاحب السعادة المدير العام . . . فكأن سقط هذا الزر ، واستقراره بين قدمي سعادته هو كل ما استطعت تقديمه لسعادته من العذر عن خطئي الجسيم . . .

وكأنما نبه هذا الزر سعادة المدير العام الى بشاعة مظهرى ، فجعل يصعد بصره فى . . . وكأنما أفقدتنى نظرتة الفاحصة بقية عقلى ، فانحنيت لالتقط الزر ، ولكن الزر اللعين جعل يفلت من

أصابني ويدور ويتدحرج ، وأنا الألقه في اصرار ، وقد زودتني الخيبة اضطرابا على اضطراب . . فدارت الحجرة من حولي ، وجعلت أصوات غامضة تطن في أذني ، وخيل الى اني أسمع فالدوني خادم البيت وهو يهزأ بي ساخرا . . وشعرت أن كياني الرسمي والانساني كله قد أهدر ، وانني قدمت موتا مدنيا .

وأخيرا استطعت القبض على الزر المشنوم ، فرحت أحاول في بلاهة شديدة أن أعيد سيرته الأولى في موضعه من كسائي ، كأن ذلك أمر في المقدور . .

وجعل المدير يحملني برهة ثم التفت الى رئيسي المباشر وقال له :

— ما هذا ؟ ألا ترى كيف يبدو ؟ ماذا به ؟

فقال الرجل :

— انه لم يتقدم بأي تظلم من سوء حاله ، وهو يتقاضى مرتبا عادلا بحسب القدر القانوني . . أما مسلكه في العمل خلال خدمته الطويلة فمسلك نموذجي .

— أليس في المقدور مساعدته بشيء . . ولو بقرض يحسب من مرتبه مثلا . .

— لقد قبض مرتبه جملة شهور سلفا . . ويظهر انه يعاني مشاكل خاصة تسبب له عناء كبيرا ، فصفحة خدمته نقيه خالية من مثل هذا الخطأ .

وكان الدم يتدفق الى وجهي وأنا أسمع هذه المناقشة التي تدور حول عملي ، وحول خصوصياتي ، حتى كأن لفحة من نار السعير قد ناشت وجهي . . فتمنيت لو وافاني الموت وأنا في مكاني ذاك .

فلما انتهى هذا الحوار الهامس ، قال سعادة المدير بصوت عال :

— أعدوا صورة أخرى من هذه الوثيقة ، وبغاية السرعة !

وانت ياديو فشكين تعال هنا الى جوارى . . أعد كتابة هذه الوثيقة ولا تخطيء في النقل هذه المرة . . وبهذه المناسبة . .
ثم التفت الى جميع من حوله ، فألقى الى كل واحد منهم أمرا عاجلا ، فانصرفوا مسرعين ، حتى بقيت معه وحدى ، فأخرج حافظة نقوده قدم لي منها مائة روبل وهو يقول لي :
- هذا ما أستطيع اعطائك يا صديقى ، فخذة ولا تتخرج ، فهو قرض ترده لي متى استطعت .

ودس الورقة في يدي ، وأنا صامت لا أستطيع نطقا ، وان كانت كل جارحة من جوارح بدنى ترتجف ارتجافا شديدا . .
فألتحيت على يده أهم أن أقبلها ، فتخرج وجهه بحمرة قانية وشد على يدي وهزها هزة ولى حميم ، كما يفعل الأكفء . . فشعرت كأنتى كبرت بعد صفار ، وارتفعت بعد اتضاع . ثم قال لي فى لطف :

- امض الآن يا صاحبي ، فقد فعلت لك ماوسعنى ، وتحرزمن الخطأ فى المستقبل . أما هذه المرة فعفا الله عما سلف . .
لقد رد الرجل على ما ضاع من كرامتى وشجاعتى الادبية وتقديرى لنفسى ، ورد على أيضا أسباب العيش وصلاح الحال .

وهاك الآن يا أختاه ماقررتة : سأطلب منك ومن فيدورا أن تشكرا سعادة المدير فى صلاتكما كل يوم . ذلك حقى عندكما ، حق الوالد على بنيه ، فأنتما لي بديل من الاسرة والولد . .
وأى عجب فى هذا الطلب ؟ ألسنت كنت ميتا فأحيا موات نفسى ، وكنت هينا فرفع قدرى وأعلى رأسى ، وكنت مضيعا لألم على أشتات فكرى فرفع عنى هذه اللعنة ، وكنت سييء الظن بالناس ، وسوء ظنى بالناس يحزننى فوق حزنى لسوء حالى ، فأعاد الى الثقة بالناس ، وبالحير ، وبأصبع العناية التى كنت أفتقدها فى شئون البشر ؟ . .

عفوك يا أختاه اذا كنت قد أطلت ، فاني أحس في نفسي
اضطرابا شديدا . وما ظنك بمن فقد البصر ففتحت عيناه فجأة على
النور في وهج الظهيرة ؟

ان قلبي يكاد ينشق من شدة الحفقان ، ويكاد يطير عن أضالعي
لكثرة ما يقيمه الفرح ويقعده . . . وأحس الى جانب هذا خدرا في
أعضاء جسمي وتفككا في أوصالي ، كشعور المرء حين يقطع مرحلة
طويلة وهو راجل ، حتى اذا بلغ مراده أحسن بما شغلته
الرحلة عن الاحساس به من التعب والنصب .

واني أرسل اليك مع هذه السطور خمسة وأربعين روبلا ،
وسأعطى لربة البيت عشرين روبلا ، وسأصلح شأن ثيابي
بعشرين روبلا مثلها ، ويبقى لي بعد ذلك خمسة عشر روبلا لنفقة
طعامي وما اليه . .

أما الآن فساؤى الى فراشي ، لعلني استجم من هذه الهزات
التي توالى على في نقائضها العنيفة هذا الصباح . .
وسأجتهد في زيارتك قريبا ، أما الآن فما أراني أصلح لذلك ،
لأن ما بي هو السكر ولا خمر ، فما تلم جارحة مني بجارحة الا
بجهد جهيد . .

وأختم رسالتي يا أختاه بشكر الله ، فانه حقا هو العزيز الحكيم ،
السميع العليم ، الرحمن الرحيم . .
واني لك يا يمامتى المعبودة

الولى الصادق الحميم
مقار ديوفشكين

١٠ سبتمبر

عزيزى العزيز مقار
أسعدنى ما أسعدك من حسن الطالع ، وان مدرك يا صديقي
لأهل لكل صالحة وكل شكران . . والحمد لله الذى آتاح لك

شيئا من هدوء الهال بعد الذي عانيت من العناء هذا الزمن الطويل .

ولكنني استجلفك بالله ، ويكل عزيز لديك ، ألا تعود الى بسط يدك والتبذير فيما لا لزوم له ، وعليك بالقصد في النفقة ما وسعك القصد ، وأقنع بعيش الكفاف ، ذلك أجمل بك وأحسن عقبي . . واجعل همك منذ اليوم أن تدخر شيئا من دخلك ، حتى لا تعود الى ما كنت فيه من ضائقة تسقط المروعة وتريق ماء الوجه اذا حزبك أمر من الامور على غير انتظار . .

أما أنا يا صديقي ، فلا تجشم نفسك معاناة ما يكتنف حياتي من الشدائد ، وما كان ينبغي أن تبعث الى بهذا المبلغ الجسيم ، فلست أطمح في شيء ليس عندي ، وأنا بحياتي راضية والحمد لله . . وليس للمال عندي نفع الا في النقلة من هذا البيت ، ولكن فيدورا ستقبض عن قريب مبلغا متجمدا لها يكفي لهذا الغرض وزيادة . .

واني احتفظ مع هذا من هديتك بعشرين روبلا ، وأرد اليك الباقي شاكرة لك شعورك النبل ، ومكررة على سمعك نصحي أن تقتصد في نفقاتك ، وألا تبسط يدك كل البسط .

وكنت أود أن أترسل في الكتابة اليك بهذه المناسبة السعيدة ، لولا ما أشعر به من الضعف الشديد ، فقد لزممت بالأمس فراشي ولم أبرحه طول النهار . . وهانذا اليوم أحس بالتعب ينهك قواي .

لا تنس وعديك لي بالزيارة ، فأنا في الانتظار . .

بربرة

١١ سبتمبر

عزيزتي العزيزة !

استحلفك بالله يا عزيزتى وأضرع اليك وأتوسل ألا تتخلي
الآن عني ، وقد بدأت المقادير تبتسم لي .. أم تأبين الاالكدر ،
وقد صفا العيش وطاب ما كان خبيثا من مهاد القدر ؟ ..
يمامتى !

لا تعيرى فيدورا سمعك ، وثقى اننى سأكون طوع بنانك ،
وعند أمرك ، ولكن لا تتركينى وحيدا فى الظلام يا نور أيامى ..
سأتحرى الاستقامة وسمت اللياقة والكرامة حتى ترضي عني ..
وستستمر الرسائل بيننا سفيرا أميننا ينقل أفكارنا وخواطرنا ،
ويوثق ما بيننا من صداقة طاهرة .. ولكنها ستكون منذ اليوم
رسائل صفاء لرسائل أحزان وارزاء .. وسنكون صديقين
فى السراء كما كنا صديقين فى الضراء .. أم تأبين على تمام
النعمة ، وتسعين الى تحسرى على أيام المسغبة والفاقة ، لأنها
كانت تجمعنا فى عروة وثقى ؟

هل لديك ما يكفيك من الخشب ، فالبرد شديد فى المساء ، ولا
تؤمن غدرات هذا الجو المتقلب ، وأخشى أن تصيبك نازلة من
نوازل البرد ..

آه يا فارينكا ! لو تعلمين كم أنتفض فرقا وفزعا لمجرد تفكيرى
فى احتمال مرضك ، انى حرى أن أموت حزنا لو أصابك مكروه
يا فارينكا ..

ولو سمعتنى أصلى يا فارينكا ، لعلمت كيف أدعو لك الله من
كل قلبى وكيف ابتهل اليه أن يبقيك لي .. والحق اننى لأصلى
الا من أجلك ، ومن أجل سعادة المدير ، بارك الله فى عمره !

وهل عندك جوارب من الصوف ؟ خبرينى الحقيقة ، فصحتك
أثمن شئ فى الوجود .. ولا تتخرجى من التصريح لي بما ينقصك
يا أختاه .

لقد مضت أيام النحس الى غير رجعة . .
 تناولت اليوم خطابتك جميعا ، فقبلتها ، واحدا واحدا ، لأنها
 كانت عزائي الوحيد في أيام تعاستي ونكسي . . فلولاك
 يا يمامتي لقضيت يأسا وأسفا . .
 والآن وداعا يا أختاه ، فقد وصفوا لي كساء جديدا ، أعني
 انه في حكم الجديد ، واني ذاهب من توى لمشاهدته . .
 صديقك الصادق الولاء
 مقار ديوفشكين

عند صرفوا الليالى

١٥ سبتمبر

عزيزى السيد مقار !

انى اليوم فى أقصى حالات الاضطراب والحيرة ، فقد جاءتنى
أنباء تحمل فى طواياها الهول الى فالسيد « بيكوف » - وأنت تعلم
تاريخه المشئوم معى - موجود فى بترس-بورج ، وقد لقيته
فيدورا بالامس . فلما رآها وقف عربته ودنا منها ، وسألها عن
مقامها الآن ، ودقق فى تحرى العنوان .

وقد رفضت « فيدورا » أن تعيره العنوان أول الامر ، ولكنه
عرض بى تعريضا ساخرا ، فلم تطق المسكينة صبرا ، وراحت
تمطره فى وسط الشارع وابلامن الاتهامات ، وجابهته بما
سببه لى - أنا اليتيمة المهيضة الجناح - من الكوارث والاحزان .
وانصرفت فيدورا راجعة الى البيت ، وروت لى ما وقع بينهما ،
فاستخلصنا من كلامه انه لا يعرف مقرنا ، وحمدنا الله على ذلك . .
ولكن ما كدت أخرج ساعة الاصيل الى السوق ، حتى دخل حجرتنا
فقد سأل « أنا فيودروفا » وعرف منها العنوان ، ثم عني
بدراسة المنطقة وأحوال سكانها قبل أن يطرق بابى .
وبعد أن قلب بين يديه بعض الملابس التى أحيكها وأطرزها ،
سأل فيدورا بغير مقدمات ذلك السؤال المباغت :
- من هذا الموظف الذى تربطكما به كل هذه الصداقة
المتينة الاسباب ؟

واتفق مرورك فى هذه اللحظة عبر فناء الدار ، فأشارت فيدورا
بسبابتها نحوك ، فألقى عليك نظرة خاطفة ثم ابتسم ! فرجته
فيدورا حينئذ أن ينصرف ، لان الاحزان والاشجان تضنينى ،
وصحتى لا تسمح لى بمثل هذا الموقف العصيب اذا أنا عدت قبل
انصرافه ورأيته فى حجرتى . .

~~~~~ وعند صفو الليالى ~~~~~

فسكت لحظة ثم قال انه ماجاء لغاية ، بل لمجرد الزيارة ، ثم عرض على فيدورا خمسة وعشرين روبلا ، فرفضت قبولها بطبيعة الحال .

فما معنى هذه الزيارة ؟ وماذا يريد منا ؟ وانى لاجب كيف تبلغه اخبارنا ، فهو فيما يلوح عليهم بأحوالنا كافة ؟ ..

انى لحائرة وأخشى أن يعود الى مثل هذه الزيارة فى حضورى .. وما أشد جزعى لمجرد التفكير فى هذا الامر .. فعندما روت لى فيدورا ما حدث عند عودتى ، انتابنى الدهر ، وأوشكت أن يغشى على فزعا !

ماذا يريد بى أولئك الناس بعد الذى أحدثوا فى حياتى من الاضطراب ؟

انى لأريد أن أعرفهم ، ولا أحب أن يذكرنى بهم مذكر ، وإن كان النسيان والأسفاه من رابع المستحيالات ! ..

لقد اضطربت أعصابى وأفلت منى زمامها ، وبت أتوهم فى كل لحظة انى سأراه ماثلا أمامى .. ولست أدري ماذا سيحدث لى لو أن هذا وقع فعلا ..

ترى ماذا يخبىء لى القدر بعد الذى كان منه فيما سلف من الدهر ؟

أتوسل اليك بحق السماء أن تخف لزيارتى أيها الصديق .. تعال ، فانى أحوج ما أكون الى قربك

بربارة

١٨ سبتمبر

أختى العزيزة !

وقع فى بيتنا اليوم حادث من أعجب الحوادث وأدعائها للحزن

والاسى .

أنت تعرفين جورشكوف ، الموظف المفضول ذا العيال ،

وعند صفو الليالى . . .

الذى مات ولده منذ شهور ، وأعياء أن يقوت من بقى منهم . .
هذا الرجل المظلوم قد أنصفه القضاء أخيرا ، بعد أن استنفد
جهد البشر والملائكة فى مغالبة الجوع . . . وحكمت المحكمة له
أمس بتعويض كبير .

وذهب الرجل اليوم الى المحكمة ليسأل عن نتيجة الحكم ، فزفوا
اليه هذه البشرى ، فعاد الى البيت فى الساعة الثالثة
بوجه شاحب فى بياض الثلج ، وكانت شفتاه تختلجان اختلاجا
لا ارادة له فيه ، ولا حيلة له فى رده عنهما . . ولكنه مع هذا كان
يبتسم ابتسامة يسهم فيها كيانه كله ، على مابه من اكفهرار
وتخاذل . . .

وقبل الرجل زوجته وولديه ، وأسرعنا كلنا الى حجرتهم لنزف
اليه التهنئة الحارة على هذه النعمة الطارئة ، التى أنقذته من العوز ،
وانتشلته من المذلة ومسحت عن جبينه ما كان عالقا به من وصمة
التدليس . . .

وسر المسكين بتهنئتنا ، حتى لم يكن يدرى كيف يشكرنا ،
فجعل يحيى باليمين والشمال ، ويشد على يد كل واحد منا
أكثر من مرة واحدة ، لفرط مابه من اضطراب وذهول . .
وخيل لى أن السعادة التى جاءت على رأس قد أطالت من قامته ،
ومدت من هامته ، فانتصب عوده بعد تطامن . . وبدا لى أن الدموع
التي كانت تنهل دواما من عينيه قد انقطع مسيلها . .

أما حديثه فكان نشارا لا تلم منه عبارة بعبارة ، وأما حركاته
فكانت نزغات لاضابط لها ولا هدف ، يتناول الشئ لغير داع ،
ثم يلقي به من يده لغير سبب ، ويقوم ويقعد ، ويشكر ويتحسر .
ثم انطلق بفتة يبكى بكاء مرا ، فما بقيت عين فى الحجرة الا ثرفت
دمعها رقة لهذا المسكين . . ولما هم أحد السكان بالتسربة عنه ،
وأخذ يربت على كتفيه مواسيا ، نحى يده عنه بحركة تفيض أنفة ،
لم أكن أعهد لها فيه والحق يقال من قبل . .

~~~~~ وعند صفو اتينانى . . ~~~~~

شد ماتغير الظروف من أحوال الناس وخلائقهم ياأختاه ! . .
لقد طلبت امرأته من ربة البيت غداء ممتازا لذلك اليوم
وانصرفنا الى حجراتنا . . فراح جورشكوف يدخل عند كل واحد
منا برهة ، يثرثر فى غير محصل ، لمجرد الحركة والكلام ، الى أن
يحين موعد الغداء ، وما كان يدخل حجرة أحد من قبل . .
فلما تم اعداد الطعام ، أقبلت عليه تلك الاسرة التى طال بها
الحرمان اقبالا متوقعا مفهوما . فلما انتهوا منه ، قال الرجل
لامرأته :

— أريد أن أستريح الآن قليلا .

ثم استلقى على الفراش ، ونادى اليه ابنته فداعب بأنامله
شعرها الاثيث ، ثم التفت الى امرأته وسألها :

— وبانتيك يا امرأة ، أين هو؟

فرسمت المرأة على وجهها علامة الصليب وقالت له فى دعر:
— بانتيك مات كما تعلم . .

فابتسم وقال :

— أجل ، أعرف هذا ، فهو الآن فى ملكوت السموات !
وأدركت المرأة ان المفاجأة السارة هزت أعصاب الرجل ،
فقالت له :

— أرى لك أن تنام قليلا حتى تستريح أعصابك شيئا ما .
فاستدبرها وسكنت حركته برهة ، ثم التفت اليها ثانية وحرك
شفتيه بشيء لم تتبينه ، فسألته :

— ماذا يا عزيزى ؟

بيد انه لم يجبها ، فاستأنت برهة ، فلما لم يقل شيئا علمت
انه نام ، فقامت لزيارة ربة البيت وقضت معها فى الحديث ساعة
قصيرة ، ثم عادت الى حجرتها ، فأدهشها أن تجد زوجها لا يزال
حيث تركته نائما لم يتحرك فى رقدته ، فعزت ذلك الى ثقل
النعاس ، وتناولت خيطا فجعلت تغزله نحو من نصف الساعة . .

~~~~~ وعند صفو الليالى .. ~~~~~

تنبهت بعدها من شرود اعتراها فاستغرقها وهى تغزل ، فاذا
الرجل على حاله الاول .. وراعها الصمت الثقيل الذى يسود
الغرفة ، فاقتربت من الفراش وكشفت عن زوجها الغطاء ..
فاذا هو قد مات !

شبد ما هصرت قلبى هذه الميته المباغته .. كأنما كلفته نصيقتة
أنفاس حياته ، وكأنما حرام على المظلوم المكروب أن يعرف لغير
الغبين والفاقة طعاما ..

يابئس للدنيا ! أكذلك يمضى الناس عنها بين غمضة عين
وانتباهتها ؟ ألا أمان فيها لشيء ، ولا ضمان لديها لأمر ..
هل حقا يموت الناس هكذا ، بغير مقدمات ، وعلى غير انتظار ؟
انى لحزين ..

مقار ديوفشكين

ثمالة الكاش

٢٣ سبتمبر :

صديقي الاعز :

طال عهدي بعدم الكتابة اليك ، فقد حدثت شواغل حالت بيني وبين ما كنت اريده من الحديث اليك على صفحات القرطاس ! فأمس الاول زارنا « بيكوف » ، وكنت وحدي هذه المرة ، لان فيدورا كانت قد خرجت الى السوق .. ففتحت أنا الباب حين طرقه ، فما وقع عليه نظري حتى صغقت اولم أحر نطقا ولا حراكا ، فدخل وهو يقهقه بالضحك على مألوف عادته ، وتناول مقعدا فاستوى عليه دون انتظار دعوة مني .. وبقيت أنا مسمرة عند الباب برهة ، ثم لذت بركن قصي ، وراء مائدة الحياكة ، وانصرفت الى عملي ، وقد علت الصفرة محياي ! فجعل يتفحصني بنظره ، ولا شك انه وجدني قد تغيرت كثيرا عما عهدني منذ بضع سنين .. ثم أخذ يبادلني حديثا سهلا ، يخالف بين عباراته بالدعابات والضحكات العالية ساعة من الزمن . فلما هم بالانصراف تناول يدي بين يديه ، وقال لي بالحرف الواحد :

— أراني يا بربارة مضطرا الى الاعتراف لك أن « أنا فيدروفا » قريبتك وصديقتي ، امرأة تستحق كل زراية ونكال ..

ثم نعتها نعتا لا استطيع كتابته اليك ، لانه مما تنبو عنه الاسماع .. واستطرد قائلا :

— لقد أودت بشرف ابنة عم لك ، وأفسدت حياتك ، وكنت أنا في الحالين ندلا خسيسا .. ولكن هذا قضاء جار على الاكثرين ولست فيه فريدة ..

ثم انطلق يضحك ضحكته المدوية ، واعتذر لي بأنه رجل أعمال لا يحسن الكلام ، وان مراده من هذا الحديث ان يبين لي

حسن نواياه ، ويقظة ضميره !
وانتقل من ذلك الى مباغتتي بطلب يدى .. !
- انى رجل موسر ، وأرى من واجبى أن أرد عليك بالزواج
اعتبارك وشرفك الذى شاركت فى اهداره ..
وراح يطنب لى فى وصف مزارعه التى ينوى الاخلاص اليها
بعد الزواج ، ليتفرغ للصيد والقنص .. وانجاب ذرية
صالحة ترث اسمه وثروته من بعده .
وعرج بعد ذلك على ما يراه من سوء حالى ، وفاقنتى ،
واضحلال صحتى .. وسألنى عن حاجتى من المال ليقضيها
لى ..

وكان هذا العرض المباغت قد هز مشاعرى هزا عنيفا ،
فانطلقت أنشج بالبكاء دون أن أدري لبكائى سببا ، فظن اننى
أبكى شكرا له وعرفانا لجميله الذى يسديه الى بذلك الزواج
فجعل يقول لى باسماء مترفقا :

- لقد كنت فى ظنى على الدوام فتاة كريمة النفس طيبة
القلب مثقفة ذكية ، ولكنى لم أشأ أن أقدم على هذه الخطوة
قبل ان أثبت من استقامتك ، وحسن مسلكك ، على رغم ما تعانينه
من شدة وضيق ..

ثم شرع يلقي على أسئلة شتى عنك ، فلما أجبته قال :
- انى واثق من صدق قولك ، فقد سألت عن هذا الرجل
فقيل لى انه رجل مهذب وذو خلق .. وتأكدت أنه أحسن
القيام على شأنك وصيانة شرفك ، ولست أحب أن يثقل دينه
هذا على عنقى ، فاستخبريه هل تكفى خمسمائة روبل
لتعويضه عما تجشمه فى سبيلك من مشاق ..

فلما قلت له ان خدماتك لى من طراز لا يمكن أن يقدر بمال ،
استشاط غضبا وجعل يتهمنى بالبلاهة والخرق .. !
وانصرف بعد أن اوصانى بالتفكير فيما عرضه على من أمر

الزواج ، فهو لا يحب القرارات المبتسرة في مثل هذه الشؤون الخطيرة .. فاذا راق لي الزواج منه فيها ونعمت ، والا فانه سيكون في حل من الزواج بامرأة من أهل الثراء والتجارة الواسعة في موسكو ..

ودس في يدي قبل انصرافه خمسمائة روبل ، فلما أبيت أن أخذها قال :

— بل خذها لتشتري بها شيئا من الحلوى تتسلين بها في سهرك .. وانتظري حتى تتزوجيني ، وسترين حينئذ كيف يصير لك الشحم واللحم بعد الهزال والدوار ..

وقد فكرت يا صديقي في حديثه كثيرا ، حتى أنهكنى التفكير ثم انتهيت الى قرار آخر ..

وذلك القرار يا صديقي هو القبول .. وهل أمامي غير هذا الطريق اذا أردت استرداد اعتباري ومحو العار عن شرفي .. ؟ انه الرجل الوحيد في هذه الحياة الذي في وسعه أن يرد الى كرامتي العذرية التي أهدرها .. ثم لا تنس أن زواجي به سيقيلني من بؤسة الفقر ، ويؤمن مستقبلي ، ذلك المستقبل الاسود الذي يطل برأسه من ثنايا الحاضر الاغبر ..

وفيدورا تلح على في القبول .. فهي فرصتي الفذة لانقاذ شرفي ، وانقاذ صحتي وضمان عيشي كذلك .. وليست مسألة الصحة من الهينات ، فأنت يا صديقي تعرف ضعف بنيتي فالعمل ينهكني ، ولا بد لي من العمل كي أعيش كما تعلم .. واذا أفلتت هذه الفرصة الشريفة — ولأقول أنها مشرفة! — فمن عساه يتقدم لطلب يد فتاة يتيمة فقيرة تنوشها العلة وتفسد نضرتها .. ؟ !

الحق يا صديقي ان الامر لا خيرة لي فيه .. وانما هو

طريق واحد . وقد عولت على سلوك ذلك الطريق . .
واذا كنت لم اطلب اليك الادلاء برأيك في هذا الامر ، فذلك
لانى آثرت أن أحمل تبعة البت فيه وحدى . . وسأبلغ بيكوف
قرارى هذا منذ اليوم . .

ولست غافلة عن جميع جوانب الموضوع الذى قطعت فيه
برأى . . فأنا عالمة تمام العلم أنى لا أحب بيكوف ، وانه لا
يحبنى . . ولكنى مقدره انه يقدرنى ، وقد تبث له المعاشرة
التقدير فى قلبى ، لانه فيما يقال رجل طيب شهم . . وهل أطمع
فى أكثر من مودة وتقدير متبادلين . . ؟ ذلك حسبى يا صديقى
من حظوظ الحياة . .

وانى واثقة من أنك ستقدر الموقف حق قدره ، وستنظر اليه
بما عهد فيك من الايثار النبيل . . فلا تحاول اثنائى عن عزمى
فقد تأملت كثيرا لفكرة فراقك ، ولكنى وجدت العقل والحزم فى
جانب القبول ، فاخترت جانب الحزم والعقل ، مطدعة الى
نبلك المعهود . .

هاهوذا بيكوف قد حضر ، فأجتزىء الآن بهذا القدر ، لانه
مصر على عقد الزواج فى بضعة أيام ، فأعماله لاتسمح له بالبقاء
هنا طويلا . .

بربارة

٢٣ سبتمبر :

أختى بربارة . . !

أتعجل الكتابة اليك فور وصول خطابك ، لاقول لك انه
وقع منى موقع الدهشة الشديدة . . فلا شك أن بيكوف قد
سلك المسلك الذى يقتضيه الشرف ، ولكن هل كان ينبغى
أن تقبلى الزواج منه بهذه السرعة ، ولا أقول هذه اللفظة ؟
ولا شك عندى أيضا ان بيكوف يريد بك الخير ، وانه
سيكون رفيقا بك ، وانك ستسعدين يا يمامتى وملاكى ،

بما يتهيأ لك من اليسر والرفاهة وخفض العيش ..
ولكن فيم هذه العجلة يا عزيزتى ..؟ الآن مشاغله تقتضيه
التعجيل بالرحيل ..؟

وان ..! فليس في العجلة خير ، لانها من حبائل الشيطان
عفوا ..! رأسى يموج كخلية من النحل ، فقد وارينا
جور شكوف التراب صباح اليوم .. ونالنى من ذلك نصب وكمد
شديدان .. فلا أدري ماذا أرى .. أو ماذا أقول لك فى هذا الامر
الخطير ..

وانا يا يمامتى ، ألم تفكرى فيما يصيبنى من فراقك
ورحيلك عنى ..؟ ألسنت جديرا بجانب من تفكيرك يا أختى
وملاكى ونور أيامى ..؟
الامر لله ، ولك يا فارينكا ..!

ستتزوجين اذن عما قريب .. وسيلزمك ولا بد أن تشتري
أثوابا وأحذية وجوارب ، وما الى ذلك .. انى أعرف محلا
يبيع أحذية للسيدات فى غاية الرشاقة ، كنت أشتهى أن
أشتري لك منه حذاء .. فأوصيك به يا فارينكا .. انه فى
شارع « جوروخوفايا » العظيم .. الذى رأيت فيه ذات ليلة
عربات الاميرات والامراء .. تمنيت أن أراك فى مثل عزهن
السابغ ..!

ولكن كلا ..! هذا محال ..! محال أن ترحلى عنى هكذا
سريعا وقد أشرقت أنوار اليسر فى حياتى بعد عسر طويل ..
تذكرى على الاقل انه يلزمك شراء كثير وكثير جدا من الاشياء
فلا بد من بعض الوقت نقضيه معا فى تجهيز هذه العروض
وانتقائها ..

وهل تثقين بصدق فراسة فيدورا حين قالت لك انك
ستسعدين فى حياتك الجديدة مع هذا الرجل ..؟

لقد رأيته خارجا من لدنك ، وهو فيما أرى رجل ذو مهابة .. بل ان مهابته زائدة على الحد اللائق .. هل ستذهبن الليلة الى صلاة العشاء .. ؟ سأذهب أنا على أمل رؤيتك هناك ، فأرجوك أن تذهبي أنت أيضا .. لقد صدق بيكوف حين قال أنك فتاة طاهرة ذكية الفؤاد سرية النفس راجحة العقل .. ولكنى أرى أنه كان خيرا له لو تزوج صاحبه الثرية ذات التجارة الواسعة في موسكو ، فهي أقرب الى موافقته .. سأنتهز فرصة الظلام لازورك ساعة قصيرة ، فلا بد لي من حديث معك يا اختاه .. فانتظري قدومي ..

مقار ديوفشكين

٢٧ سبتمبر :

صديقي العزيز ..

يصر بيكوف على أن أتزود بستة وثلاثين قميصا من الحرير الهولندي ، لا تنقص قميصا ! فينبغي أن أتبحث لي عن قطعتين من ذلك الحرير ، تصلح كل قطعة منها لاثني عشر قميصا أخرى غير تلك التي اشتريتها أمس .. وأرجوك أن تسرع في الحصول عليها ، لان الوقت قد أزف .. ! فسيتم الزفاف بعد خمسة ايام ، وسنرحل في اليوم التالي ..

والحق أن هذه العجلة قد أضنتني ، حتى لأوشك أن أسقط اعياء ، لولا ما أمامي من الاعمال الكثيرة .. وتراودني نفسي على الرجوع في الزواج ، وبهذه المناسبة تنقصني كمية من المخرمات (الدانتلا) للملابس الداخلية ، فلا تنس أن تشتري جانبا منها مع الحرير الهولندي

اشعر بالبرد في هذا المسكن الجديد ، وأما عمه بيكوف العجوز فامرأة لا تطاق ، وكل شيء هنا مختل النظام ، والخدم على

كثرتهم مهملون ، وكثيرا ما يتغيبون دفعة واحدة ، فتضطر
« فيدورا » الى القيام على خدمتنا بمفردها .. ولهذا
يحيرنى كيف أبعث اليك بهذه السطور ، وأحسب البريد خير
وسيلة فى الامكان ..

كدت أنسى أهم ما فى الخطاب ... مر بمحل الطرزى ، وأوصه
ان يجعل الطرز نقشا بارزا فى جميع القمصان ، لان يسكوف
يصر على أن تكون ملابسى أبهى وأغلى ما تلبسه السيدات فى
الناحية بأسرها ..

لا تنس شيئا من هذه التوصيات يا صديقى ، وأرجو ألا
تضيق بكثرة المهام التى استأديك اياها كل يوم .. فما حيلتى ؟
الوقت ضيق ، ولا بد من اتمام الجهاز فى بضعة ايام ، وكلما
ظننت أننى انتهيت ، تذكرت أشياء كنت قد غفلت عنها ..
متاعب جمّة ، واما العاقبة فعلمها عند الله ، ولا احاول
استكناها من بين أستار الغيب .. فليكن يا صاحبنى ما يكون .

برنارة

ثم ماذا

٢٧ سبتمبر

عزيزتى السيدة بربارة !

لقد قمت بجميع ما أمرتنى به بكل دقة وأمانة . . . وقد فوت هذا على موعد الديوان ، ولكن لا بأس ، مادام فى ذلك راحة لك من بعض ما يشغل بالك فى هذه الايام الحافلة بالمهام .
وثقى انى على تمام الاستعداد للقيام بكل ما تطلبين ، فلا تتخرجى من تكليفى بشئ ، ولو اقتضى انى أن أذرع المدينة من أقصاها الى أقصاها .

تقولين انك تتوجسين من المستقبل ، ولا تحاولين معرفة ما يخبىء لك . . . ونصيححتى اليك ألا تدعى التشاؤم ينفذ الى قلبك ، واطمئنى الى أن الله سيهينى لك كل خير فى حياتك الجديدة ، فلا تقلقى .

كم أود أن أزورك فى مسكنك الجديد . بل انى حاولت ذلك مرارا ، وبلغت فى مرتين منهما بالامس باب دارك ، ولكنى رددت نفسى عن الدخول فى آخر لحظة . . . لأن هذا السيد بيكوف يبدو لى خشن الملمس !

مقار ديوفشكين

٢٨ سبتمبر

عزيزى السيد مقار !

أرجوك أن تذهب الى محل الجوهري ، وقل له اننى عدلت عن صنع القرط المرصع بالياقوت واللؤلؤ ، فالسيد بيكوف يراه غالى الثمن وأعلى قيمة وأكثر بدخا مما ينبغى لنا .
ولو رأيت غضبته أمس لهذا السرف الذى يرمىنى به ، فقد اتهمنى جهرة بالتآمر على افلاسه . . .

ثم انثنى بعد ذلك يلوم نفسه على التورط فى هذا الزواج ، غير مقدر أنه فتح لماله بالوعة لا تعرف الشبع . . .

وقد حفزه هذا الغضب على الغاء كل ما كنا قد قررناه لحفلة الزفاف . فلن يدعو أحدا ، ولن يقيم مأدبة ولا حفلا راقصا ، وما هو الا أن يعقد العقد ، حتى نرحل من فورنا الى الريف . هكذا يا صاحبي بات بيكوف يخاطبني خطاب السيد الأمر الناهي ، ولا حول لي معه ولا طول . ولعله نسي انني لم أطلب شيئا من هذا الجهاز المترف ، ولم أقترح حفلا راقصا ولا مأدبة عشاء ، فما أزهدني في ذلك كله . . . وانه هو الذي اقترح ، وهو الذي استرد ما منح . . . ولكنني لا أجسر على تذكيره أو مراجعته اذا غضب ، فهو رجل عنيف .

ترى كيف ستكون حياتي معه ؟

بربارة

٢٨ سبتمبر :

يمامتي بربارة !

لقد أبلغت الجوهري ما طلبت لي أن أسوقه اليه من القول . وأما أنا يا يمامتي فمريض لا قدرة لي منذ عدت الى البيت على مغادرة الفراش . وشد ما يسوؤني هذا يا أختاه أن ألزم فراشي في أشد أوقاتك حاجة الى خدماتي .

منذ الذي يقضى لك حوائجك وأنا طريح الفراش ؟ أشعر بثقل في أطرافي ، وتصلب في أوصالي وأصلابي ، وتداع في قوتي ، وما أظنه الا بردا خبيثا مما يلم بي أحيانا . كنت أود أن أسترسل في الكتابة ، ولكنني لا أستطيع . . .

مقار ديوفشكين

٢٩ سبتمبر :

بربارة ، يا صديقتي العزيزة . لقيت اليوم فيدورا ، وعلمت منها ان زواجك سيعقد غدا ، وانك سترحلين بعد غد مع بيكوف ، وانه قد أعد العدة منذ اليوم

لتلك الرحلة ، فاشترى جيادا قوية وعربة فاخرة .
وقد راجعت « فواتير » المشتريات ، فوجدتها صحيحة ، ولكنها
باهظة الارقام . ان هذا لا يبرر غضب بيكوف الذى صبه على
رأسك . فما ذنبك انت وهو الذى أصر على شراء كل هذه
الكماليات ؟

وفقك الله يا يمامتى ، وكتب لك السعادة .
وكنت أود الذهاب الى الكنيسة لحضور العقد ، لولا أن آلام
المفاصل تقعد بى عن الحركة . .

وسرني كثيرا ما علمته من فيدورا عن سخائك وبرك بها ، فهى
تستحق كل خير ، وسيجزيك الله عن هذا البر الكريم خير الجزاء
فى النفس أشياء كثيرة لا أدرى كيف أسوقها اليك . وأواها
هذه الرسائل التى عشنا بها ، وسأعيش أنا بها على الدوام . .
من سيتولى أمر نقلها فيما بيننا وقد بعدت بك الدار وشطالمزار؟
عندى كتاب من كتبك ، أتوسل اليك ألا تسترديه . . وما
بى من شوق الى القراءة كما تعلمين . . ولكن الشتاء يقترب ،
ولياالى هذا الشتاء ستكون طويلة موحشة ثقيلة الوقع على نفسى ،
وأنا أنظر من نافذتى فلا أرى النور يشرق لى من نافذتك . .
أقصد ان هذا الكتاب قد يذهب عنى بعض ما سأجده من السأم
فى لياالى الشتاء المقبل . .

أتدريين يا أختاه أننى فكرت فى حل بديع لمسألة سكنى ؟
سأحل محل محلك وأشاطر فيدورا ذلك الطابق ، وسأجعل مقامى
فى غرفتك ، ولن أبدل من حالها شيئا . . فقلبى لا يطاوعنى على
ترك فيدورا المسكينة فريسة للوحدة بعد رحيلك . .
لقد دخلت حجرتك السابقة أمس ، فرأيت كل شىء كما
تركته : قطعا من القماش متناثرة فى كل مكان ، وآلة الحياكة فى
موضعها ، وسريرك الصغير يا يمامتى خلف الستار . .
وورقة فيها سطر واحد :

ثم ماذا ؟

عزيزى مقار ديوفشكين ..
وليس فيها غير ذلك السطر شىء .. وأحسب طارئاً أزعجك
عن اتمام ذلك الخطاب ..
وداعاً يا يمامتى ، ولا تبطلنى فى الرد على خطابى ، لأن
الانتظار أليم

مقار ديوفشكين

الصرخة الأخيرة

٣٠ سبتمبر :

صديقي العظيم .. !

قضى الله ولا راد لقضائه ، ونفذ السهم وسبق السيف
العذل .. ! ذلك يا صاحبي كل ما أعرفه من أمرى ، أما ما
سيكون ، فأنا مفوضة أمرى فيه لله ، وهو وليي ونعم النصير .
سنرحل غدا يا صاحبي ، فهذا وداعى الأخير اليك يا خير
البشر نفسا واذكاهم قلبا . . . ويا من اذا عددت نعمك على ،
وأياديك لا أحصيها .. فقد كنت أبى وقد يتمنى الدهر ..
وكنت أُمى وقد سلبنى القدر عطف الام ..

وأستحلفك بالله ألا تحزن لفراقى ، وانشد راحة بدنك وقلبك
ما استطعت ، ولكن لا تنسنى أيها الصديق الكريم ..
أما أنت يا صاحبي فستكون شغلى الشاغل ، أدعو لك الله
اذا صليت ، وأذكر بالخير عهدا كان أشأم العهود لولا عطفك
وبرك ..

وانى موقنة يا مقار أن ما من انسان احبنى فى هذه الدنيا
سواك .. فقد رأيتك تكثرث لايسر همومى ، ولا ترى النور
الا فى ابتسامة شفتى ووميض عينى .. وكانت عبارة واحدة
اكتبها اليك تنسيك هموم الحياة ، وتملا بالغبطة جوانحك المطوية
على النبل وحب الخير ..

ترى كيف ستكون ايامك يا صديقي الكريم من بعدى ؟ من
سيسأل عن حالك اذا أصبحت أو أمسيت .. ؟
لقد تركت جميع رسائلك فى خوان فيدورا . . فخذها ،
واحتفظ بكل ماتجده فى غرفتى . . ولا سيما الخطاب الذى
بداته اليك ولم أتمه . احتفظ به يا صديقي ، لتتمه بعين خيالك
كلما ذكرت ماضى أيامنا التى اصطلحت عليها الاحزان فلم
تطفىء نور حبنا الطاهر ..

الصرخة الأخيرة ..

وداعا أبديا يا صديقي .. ! لقد وددت أن أراك قبل رحيلي ،
وان أقبلك أيها الأب والابن والصديق ..
الا ما أكأب ساعة الوداع أيها الحبيب .. وما أثقلها على
روحي المروعة لفراقك ..
هاهوذا بيكوف يناديني .. فمعذرة ووداعا .. !
صديقتك الباقية على حبك
برادة

٣٠ سبتمبر :

قارينكا .. ! أختي ويمامتي قارينكا .. !
أخذوك مني يا يمامتي ، ومضوا بك الى حيث لا أراك ،
ولا يبلغ بي الركاب .. فليتهم نزعوا حشاشة روحي قبل أن
ينتزعوك مني هذا الانتزاع الوجيع .. ولكنهم تركوا روحي
للعذاب ، ومضوا بك يا حبيبتى الى حيث لا أقدر أنا أن أمضى
لقد رأيت آثار الدموع على خطابك يا ملاكى .. فأنت اذن
تبكين .. أنت اذن شقية بهذا السفر البعيد ، فلماذا اذن
رحلت يا ملاكى .. ؟

لقد بكيت يا حبيبتى جزعا لفراقى ، واشفاقا على قلبى
المدنف ، فأنت اذن تحبيننى يا قارينكا .. فكيف اذن تعيشين
مع من لا تحبين .. ومن تحبين يقاسى أهوال البعاد .. !
سيشقى قلبك الطاهر الغض بهذه الحياة التى تتخمها أغذية
الجسد ، وتنقصها أنسام الروح ، وليس بالخبز وحده يحيا
الانسان ..

سيأكل السأم فؤادك ، وتضيق نفسك بهذه الوحشة ، ولن
تجدى فى ذلك الفقر الروحي الا الهم والكمد ..
لماذا اخترت ذلك الطريق ايتها اليمامة .. ؟ لماذا ارتضيت
الوقوع فى مخالاب الصقر .. ؟ لماذا آثرت القبول فجئيت على

الصرخة الأخيرة ..

قلبك الجناية التي ليس مثلها جناية .. فانه لن ينتظرك في ذلك المكان الموحش مصير سوى القبر البارد المظلم ، ولن تجدى هناك من يبكي شبابك الغض ، لان بيكوف لديه من شواغل المال والصيد ما يشغله عن الحب والبكاء ..

سحقا لي وتعسا .. ! ما كان أغباني وأعماني .. ! لماذا لم أحل دون هذا الزواج المشئوم .. ؟ كان ينبغي أن أقاومه بكل قواي .. ولكن سبق السيف العدل كما قلت .. ونفذ السهم وقضى الله ولا راد لقضائه ..

كلا .. ! بل يجب أن أرد ذلك القضاء ، غدا سأقوم من فراشي مهما كانت الحال ، وسألقى بنفسي تحت عجلات العربية كي أحول دون رحيلك الى ذلك البلد النازح ..

سأجري وراء العربية ، سأعدو خلفها طول الطريق اذا أبيت أن تأخذيني معك الى هناك .. وسأظل أجرى حتى تفارق روحي جسدي ..

الى من ياحياتي سأكتب بعد اليوم رسائل أشواقى وخواطرى اذا جن الليل واجتوانى الصديق .. !؟

من سأناديها اذا حزبنى الامر « يا اختاه » فتطمئن روحي ، وتتبدد وحشتي ، ويطيب لى الرقاد .. ؟

أنت قاتلتى يا فارينكا بهذا الفراق ولا ريب ! فلن يصمد قلبى لهذا البلاء المبرح ، وقد كنت عاصمه قبل اليوم من القنوط والموت ..

من أجلك يا يمامتى كنت أحيأ .. فلماذا أعيش الآن .. ؟ ! وقد كنت لى الابنة والاخت والام الرؤوم ..

لا تسافرى يا فارينكا ، فالرحلة شاقة ، وصحتك معتله ، والطقس ردىء .. هاهو ذا المطرينهمر ، فايالك أن ترحلى فى هذا البرد الشديد ..

الصرخة الأخيرة ..

رباه .. ! لماذا لم يتزوج بيكوف صاحبه الثرية في موسكو
فتركك لي .. فأنا ليس لي في الدنيا سواك .. انت نور ألامي
فاذا ذهب النور فكيف أبصر الطريق ، وكيف أستطيع أن
أعيش .. ؟

أمصرة انت على الرحيل مع هذا السيد بيكوف .. ؟
وا أسفاه .. !

اكتب لي خطابا آخر يا قارينكا ، خطابا واحدا فقط ..
رباه .. ! كيف أصدق أن خطابها هذا هو الخطاب الأخير ،
وان يوما سيمر بي دون أن أرى روحها مسطورة أمامي على
صفحات القرطاس .. ؟

أهكذا انتهى كل شيء يا يمامتي وابنتي واختي وملاكي ؟ !
الا ما أهون الحياة ...